(٢)

على أطلال الإباضية في أعالي شمال اليمن

بقلم رئيس التحرير

مهداة إلى الأستاذ الدكتور "ويلفرد مادلونج"
إعترافا بفضله على ما أسداه من بحوث عن اليمن
أضاءت كثيرا من المواقع المعتمة.

يعيد "البغدادي" بداية ظهور "الإباضية" في "اليمن" إلى ما بعد نهاية "معركة النهروان" مباشرة، أي إلى عام ٥٨/١٣٨-٦٥٩ ، ففي نهاية تلك المعركة نجا منهم-كما يقول- (تسعة أنفسٍ صار منهم رجلان إلى "سجستان"، ومن أتباعهم "خوارج سجستان"، ورجلان إلى "اليمن"، ومن اتباعهما "إباضية اليمن"، ورجلان صارا إلى "عمان" ومن أتباعهما "خوارج عمان")[٢] وفي النسخة التي اعتمدها محققا "الملل والنحل" للعلامة

---

[١] (وقد صحح ابن جرير[الطبري] أن قتال علي أهل النهروان كان في هذه السنة.) (ابن كثير، البداية والنهاية، اعتنى بهذه الطبعة ووثقها عبد الرحمن اللاذقي و محمد غازي بيضون، بيروت: دار المعرفة الطبعة السادسة١٤٢٢/٢٠٠١، م٤، ج٧،ص٣٣٩)

[٢] البغدادي، الفرق بين الفرق، اعتنى بها وعلق عليها الشيخ إبراهيم رمضان.بيرت: دار المعرفة ط ٣، ١٤٢١/٢٠٠١،صص، ٨٤-٨٥.

"الشهرستاني" تذكر وصول واحد فقط إلى "اليمن" وبالتحديد إلى منطقة إسمها "تل موزن"١، وكان في الإمكان أن نعتقد أن "موزن" هذه قد حُرِّفت من "موزع" اليمنية، لو لم تقع "تل موزن" بين "رأس عين" و"سروج" في شمال" سوريا"، ولو لم يكن لهذا الإسم وجود في "اليمن"، ولو لم تنص نسخة أخرى -نقلها المحققان في حاشية لهما- على وصول إثنين إلى "اليمن" (فانهزم إثنان منهم إلى "عمان"... وواحد إلى "تل موزن"، وإثنان إلى "اليمن")٢ وهذا النص يعزز القول بأن من سار إلى "تل موزن" في "شمال سوريا"، هو غير من ذهب إلى "اليمن".

لكن إلى أي مكان من "اليمن" وصلا إليه؟

يمكن أن نستنتج من قول "البغدادي" (ورجلان إلى "اليمن"، ومن اتباعهما إباضية اليمن) أن "حضرموت" هي المكان الذي قصداه، ولكن قد يكون هذا الإستنتاج صدى لما فجرته الثورة "الإباضية" في حضرموت نفسها، فجذبت الإهتمام إليها، وركزت الأحداث حولها، والغت ما قبلها، وجعلتنا نفكر تلقائيا في حضرموت باعتبارها منطلق الثورة، وجعلتنا أيضا لانفكر في نص آخر يقول أن "عبد الله بن يحيى الكندي" لما هم بالثورة في "حضرموت: كتب (إلى أصحابه الإباضية بعمان وغيرها) ٣ كما (كتب إلى

---

١ انظر الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، بيروت: دار المعرفة الطبعة السابعة ١٤١٩/١٩٩٨،ص١٣٦.

٢ الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٣٦.

٣ يحي بن الحسين بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق وتقديم د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨/١٩٦٨، ١: ١٢٤ . واسم المؤلف الصحيح يحي بن الحسين بن المؤيد، وسنطلق عليه ابن المؤيد

أصحابه في صنعاء بأنه قادم إليهم)١ فهذان النصان يظهران أن "الإباضية" كانت قد بنت لها أوكارا في أكثر من مكان هنا وهناك، لكنا لا نعرف حتى الآن مكان وكر العقاب الإباضي الأول، وليس لدينا ما نقطع به على وجه اليقين، أو نستنتج بشكل يقربنا إلى اليقين.

وفي المسار نفسه لا يفوتنا النظر إلى تعبير "البغداي" عن "إباضية اليمن"، و "خوارج عمان". والمعروف أن خوارج "عمان" هم إباضية أيضا، فلماذا سمى "إباضية اليمن" و"خوارج عمان" ولم يطلق "الإباضية" عليهما معا؟ فهل كان يقصد بخوارج "عمان": "الحرورية" لأنها أول ما ظهرت هناك؟ لكن "الحرورية" نفسها انتقلت إلى "صنعاء" أيضا. وإذن فربما كان البغدادي قد سمى خوارج "اليمن" بـ "الإباضية" بحسب ماسيكون، وأنه كان اساسا يقصد "الحرورية" في البلدين، وإنما قال ذلك مدفوعا بفعل ضخامة الحدث السياسي والفكري التي أطلقته الثورة عندما هبت من "حضرموت" وبما رافقها من ضجيج سياسي كبير باعتبارها الثورة الخارجية الأولى التي استولت على "مكة" و"المدينة"-مركزي الجذب الديني الأكثر تأثيرا- ثم ما صاحبها من انبهار أدبي بفصاحة قائدها العسكري الذي دخلت خطبه في صميم الأدب العربي، وأصبحت مرجعا للبلاغة العربية. إن ظهور "الحرورية" في "اليمن" و"عمان" كان بعد بعد حوالي ٣٢ عاما من "وقعة النهروان"، وبعد سنتين تقريبا من عودة "الخوارج" من عند "ابن الزبير" مغاضبين له، وبعد ظهور "الإباضية" عام ٦٤/٨٣-٦٨٤ في "العراق" وهذ يعزز القول بأن "البغدادي" قد سمى بحسب ماسيكون.

---

١ إسحاق بن يحيى بن جرير الطبري الصنعاني، تاريخ صنعاء، تحقيق عبد الله بن محمد الحبشي. صنعاء: مكتبة السنحاني، بدون رقم الطبعة ولا تاريخه ص٣٢-٣٣. وسنشير إليه بابن جرير.

إذا أرجعنا النظر إلى نص "البغدادي" نجده بثير إشكالا آخر قريبا من الأول وهو أنه يعيد نشأة "الإباضية" الأولى إلى قبل انفصال "عبد الله بن إباض" عن "نافع ابن الأزرق" ، وهذا قد يدعم قول من يذهب من المؤرخين الإباضيين إلى إنكار أن يكون مؤسس الإباضية هو "عبد الله بن إباض" كما أشرنا إلى هذا الإنكار أو التنكر في الحديث السابق، وما يزال الخلاف حول هذه النقطة قائما لم يبت فيه حتى الآن[١].

ولعل مما ضاعف الإرباك في هذا الموضوع اختلاف التسميات والتعميمات، ففي مجال التسميات هناك "المحكمة" و هناك "الحرورية" وفي مجال التعميمات هناك "الخوارج" وهناك "الشراة" وكل تلك التسميات والتعميمات مرجعها واحد، لكن كثيرا من المتلقين يعتقدونها فرقا مختلفة، وليس فرقة واحدة ذات أسماء متعددة، فـ"المحكّمة الأولى" هي الأصل التاريخي "للخوارج"، ويسمون بها لكونهم خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام، حين جرى أمر التحكيم، ورفعوا شعار: لاحكم إلا لله. وهي تفسها تسمى "الحرورية"، لأنهم بعد رفع شعارهم اجتمعوا بـ "حروراء" من ناحية "الكوفة"[٢] وقاتلوا أمير المؤمنين وقُتلوا، فسموا "الحرورية. والخوارح والشراة هما اسم واحد لفرق الخوارج كلها. وكان بعض المؤرخين يكتفون بالتعميم بدون التخصيص كقولهم الخوارح والشراة، بدون أن يذكروا أي فرقة من فرقها يقصدون. وهذا ماوجهناه كثيرا مع إباضية الشمال فيطلقون عليهم أحيانا الخوارج فقط. وفي الفهرست لابن النديم فصل خاص بمؤلفات فقهاء الشراة ويقول عنهم ما يستشف منه انهم فرقة، وأنهم غير فرقة أيضا (هؤلاء القوم كتبهم مستورة قل ما وقعت لأن العالم تشنأهم

---

[١] راجع الفصل الأول من هذا البحث في العدد الثالث عشر من مجلة المسار.

[٢] انظر الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٢٣.

وتتبعهم بالمكارهولهم مصنفون ومؤلفون في الفقه والكلام. وهذا المذهب مشهور بمواضع كثيرة، منها عمان وسجستان وبلاد أذربيجلت ونواحي السن[لعلها السند] والبواريج وطرخ جدان وفل عكبراء وحزة وشهرزور)[١] بينما خصص فصلا آخر لمؤلفات متكلمي الخوارج[٢] فإذا لاحظنا النص الأول نجد أنه يتحدث عن مذهب ولكن إن قرأنا مواطنهم فهي مواطن الخوارج بكل فرقهم، فالتعمية لا تزال ثابة بالرغم من تأييد النص الغامض لمن يقول أنها فرق من فرق الخوارج. والأمر بحاجة إلى مزيد من البحث والإستقصاء وليس مجاله هذا الحديث.

لكن بعد انشقاق "نافع بن الأزرق" عن "المحكمة" ثم انشقاق "الإباضية" و "الصفرية" عن "الأزرقية" في عام ٦٤/٨٣-٦٨٤ طرح تسميات جديدة لفرق جديدة، وما ذكره المؤرخون من ظهور "الحرورية" في اليمن بعيد "إنشقاق عبد الله بن إباض" بفترة قصيرة جدا تتراوح بين ثلاث سنوات وست سنوات يدل على أن "الإباضية"، لم تكن – بسبب قصر المدة- قد تشكلت فرقة، لكنها بعد قليل ستطرح نفسها على الساحة فجاءة كقوة عاصفة، وبظهورها إختفي أي ذكر "للحرورية" في اليمن.

على أن ما ذهب إليه البروفسور "ويلفرد مودلينغ" من احتمال وصول "عبد الله بن إباض" إلى "اليمن"، وقت خروج "الحرورية" إليها وأنه (قد مات فيها)[٣] وماذكر د. "النامي" عن أن المؤرخ "الكدمي" ذكر "عبد الله بن أباض"

---

[١] ابن النديم، الفهرست، تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة الطبعة الثانية١٤١٧/١٩٩٧. ص،٢٩١-٢٩٢.

[٢] ابن النديم، الفهرست، تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة الطبعة الثانية١٤١٧/١٩٩٧. ص،٢٢٧-٢٢٨.

[٣] ويلفرد مودلينغ الإسلام في اليمن، ص ١٧٤، مجلة المسار العدد ١٤

(في نفس القائمة مع "أبي بلال" و"عبد الله بن يحيى الكندي")١ وما ذكره "الشهرستاني" -وإن كان بصيغة التضعيف-: (وقيل أن "عبد الله بن يحيى" الإباضي كان رفيقا له في جميع أحواله وأقواله)٢ يفتح لنا طريقاً لم يتمهد بعد، لكنه يقود- لو صح- إلى الإعتراف بأن عبد الله بن إباض قد أسس "الإباضية" في "اليمن". ويعزز هذا ما ذهب إليه "القزويني: من أنه قام بثورة في تبالة (وبناء على ما ذكره القزويني فقد ثار ابن إباض في تبالة في أثناء عهد مروان بن محمد بن عطية) ٣

يشكك في ضعف هذه الرواية تشابك اسم الخليفة مروان بقائده ابن عطية، لكن ربما كان هناك سقط في النص أدمج إسم الخليفة والقائد معا. على أن استشهاد "طالب الحق" في تبالة على قول٤ قد يكون السبب في الاشتباه بموت عبد الله بن إباض فيها ما دام وقد خلط بين الإسمين مما يوهي عضد هذه الرواية. ويبقى مع ذلك مساحة غامضة.

وخلاصة القول فإن "حضرموت" و "عمان" –على أغلب الظن- هما محضن "الإباضية" في جنوب الجزيرة العربية. وأن يقينا تاريخيا بوجود "الإباضية" في "حضرموت" و "صنعاء" قبل آوان ظهور طالب الحق "عبد الله بن يحيى الكندي"، وأنه بين تأسيس"الإباضية" في "اليمن" وبين ثورة "عبد

---

١ عمرو خليفة النامي: دراسات عن الإباضية، ترجمة ميخائل خوري و د. ماهر جرار، دقق وراجع أصوله وعلق عليه د. محمد صالح ناصر ،ود.مصطفى صالح باجو، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطلعة الأولى ٢٠٠١، ص ٥٦. ص ٤٧. ومرجعه كتاب الاستقامة خ.

٢ الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء الأول،ص. ٢١٢.

٣ د. النامي،دراسات عن الإباضية، ص ٤٧

٤ محمد بن أحمد بن عمر الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، جدة: مكتبة الإرشاد بدون طؤ الطبه وى تاريح الطبع ج ١،ص، ١٣٣

الله بن يحي الكندي" فترة ضبابية الملامح تُعزز القول بعدم القطع بيقين في تحديد الوكر الأول، ولا كيفية إنتشار "الاباضية" في "اليمن" ولا في "عمان" لكن هذه الملامح ستتضح بشكل أفضل عند قيام الثورة "الإباضية" في "حضرموت".

*

بعد تجاوز منطقة الضباب السالفة الذكر ندخل في منطقة لاتقل ضبابية عن الأولى وأعني بذلك منطقة دخول "الحرورية" إلى "اليمن"؛ فقد اختلف المؤرخون في العام الذي ظهرت فيه إن في "عمان" أو في "صنعاء" كقوة محاربة، فذهب صاحب تاريخ اليمن لمجهول: إلى وصولها إما في عام ٦٧/٨٦-٦٨٧ وإما في شوال على رأس سنة سبعين١/٦٩٠م. وحدد "ابن جرير الصنعاني" تاريخ قدومهم إلى "صنعاء" في شوال ٧١/مارس٦٩١. وذكر أنهم أقاموا بآلة السلاح إلى شهر ربيع الأول٧١ ٢/سبتمبر٦٩٠ فتناقض مع نفسه في ذات الوقت، إذ قدم خروجهم من "صنعاء" على قدومهم إليها. وتجاوزا لهذا الملاحظة يمكن أن نضبط الوقائع بشكل متسلسل فنقول أن "الحرورية" قدمت في شوال ٧٠/ مارس٦٩١ وأقاموا بآلة السلاح إلى شهر ربيع الأول٧١/ سبتمبر٦٩٠. ومع أن هذا ينفي إشكال التقديم والتأخير إلا أن ابن جرير يضع إشكالا آخر عندما قال أن "الحرورية" ظلت في "اليمن" إلى أن (قُتل "الزبير" بمكة قتله "الحجاج بن يوسف" وصلبه. وظهرت خلافة "عبد الملك بن مروان")٣ فهذا القول يخالف ما سبق له ذكره من أنها بقيت بـ "صنعاء"

---

١ انظر النص والحاشية في ابن جرير، تاريخ صنعاء ص،٣٢-٣٣.

٢ابن جرير، تاريخ صنعاء، ص.٣٢-٣٣.

٣إبن جرير ، تاريخ صنعاء، ص، ٣٢وما بعدها.

إلى شهر ربيع الأول ٧١/ سبتمبر٦٩٠، لأن مقتل "ابن الزبير" وسيطرة "عبد الملك" كان في عام ٩٢١/٧٣- ٦٩٣، وليس في عام٧١./٦٩٠.

مهما يكن من شئ فقد صالح أهل "صنعاء" "الحرورية" على مائة ألف دينار ليخرجوا منها فخرجوا[٢].

*

لعل آخر محطات الضباب في بحثنا عن تاريخ بداية "الإباضية في "اليمن" "-وتاريخها في اليمن يحوطه الضباب- أو من 'واخرها هو الخلاف حول اسم "عبد الله بن يحي الكندي"، ففي "تاريخ صنعاء" يسميه "ابن جرير" "عبد الله بن يحي الأعور الحضرمي" بدون الإباضي[٣]. ويذهب الإمام المهدي "أحمد بن يحي المرتضى(ت٨٤٠/١٤٣٦) إلى أن اسمه "عبد الله بن يحي بن إباض"[٤] ويسميه الديبع(ت ٩٤٤/٣٧- ١٥٣٨) الخارجي الأعور "عبد الله بن يحي" بدون ذكر إباض أو إباضي[٥]. ويسميه صاحب المستطاب "عبدالله بن

---

[١] جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء. اعتنى به وحققه وعلق عليه محمود رياض الحلبي.بيروت: دار المعرفة- ط الخامسة ١٤٢١/٢٠٠٠. ص. ١٩٠.

[٢] ابن المؤيد، غاية الأماني١: ١٠٧.

[٣] ابن جرير، تاريخ صنعاء، ص.٣٢-٣٣.

[٤] المهدي أحمد بن يحي المرتضى، البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، تحقيق يحي عبد الكريم الفضيل. الجزء الأول، بيروت: مؤسة الرسالة. ١٣٩٤/١٩٧٥. ص. ٤٩. وانظر له ، الملل والنحل، صححه وعلق حواشيه دكر محمد جواد مشكور، تبريز: ١٩٥٩ بدون تاريخ ولا رقم طبعة،ص١٠.

[٥] الحافظ عبد الرحمن الديبع، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد علي الأكوع. القاهرة: المطبعة السلفية ، بدون تاريخ ولا ذكر رقم الطبعة.ص. ١١٣-١١٤. ولقب الأعور أطلقها عليه خصومه(الخوارج، ١٨١)

يحي بن إباض التميمي"١ وفي غاية الأماني "عبد الله بن يحي الخارج الأعور٢ الأعور٢ ويسميه "العرشي" -ويتابعه "الواسعي- "عبد الله بن يحي الحضرمي"٣ الحضرمي"٣ أما الجرافي فيسميه "عبد الله بن يحي" طالب الحق الخارجي الإباضي٤ والذي نرجحه هو أن اسمه "عبد الله بن يحي الكندي" وأنه تكنى بـ طالب الحق.

*

وإذا كان تحرك "الحرورية" في "اليمن" يحوطه الغموض والاضطراب؛ فإن المشهد السياسي في ثورة "عبد الله بن يحي الكندي" الإباضي المذهب ينبسط أمامنا بشكل أفضل بعد أن يكون قد ارتفع عنه شيئ من الضباب.

في عام ٥١٢٧/ ٤٤-٧٤٥ شهدت اليمن-وكانت ماتزال تابعة لدمشق- انطلاق "ثورة إباضية" من "حضرموت" بقيادة زعيمها "عبد الله بن يحي الكندي" ومن الثابت أنه لم يقم بالثورة إلا بعد إعداد وتشاور مع أصحابه؛ وإلا بعد أن تلقى التأييد من قبل كل الخوارج الذين التفوا حوله

---

١ يحي بن الحسين بن القاسم، المستطاب٧٦، خ. تحت التحقيق، وسنطلق عليه ابن الحسين

٢ ابن المؤيد، غاية الأماني ١: ١٢٤

٣ حسين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام، في شرح مسك الختام، في من تولى اليمن من ملك وإمام، عني بنشره الأب أنستاس ماري الكرملي، ص ١٥. وانظر عبد الواسع الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في تاريخ اليمن، جدة: الدار اليمنية ط ٣، ١٤٠٢/ ١٩٨٢، ص١٥٨.

٤ عبد الله عبد الكريمالجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، بيروت:منشورت العصر الحديث، ط ٢، ١٤٠٧/١٩٧٨، ص، ٩٥

٥ إبن المؤيد، غاية الأماني، ١: ١٢٥ .

كما لم يلتفوا حول أحد من زعماءهم. فيذكر "ابن المؤيد" عن "ابي الفرج" في الأغاني" :(كان "عبد الله بن يحيى" من أهل حضرموت عابدا مجتهدا؛ فلما رأى الجور في اليمن قال لأصحابه: "إنه لا يحل لنا المقام على ما نرى" وكتب إلى أصحابه الإباضية بعمان وغيرها وشاورهم في الخروج فكتبوا إليه: "إن استطعت أن لا تقيم يوما واحدا فافعل؛ فإن المسارعة إلى العمل الصالح أفضل، ولست تدري متى يأتيك أجلك")١ ويذكر د النامي: أن "عبد الله بن يحيى" استشار(قادة الإباضية في البصرة بشأن الإنتفاضة) وأنه نتيجة لذلك (كتب أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة-الإمام الثاني للجماعة الإباضية في البصرة- وزملاؤه يقولون له: "إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم فقد علمتم الذي أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم)٢ وقال د. معروف أنه كتب (إلى زعماء الإباضية بالعراق يشاورهم في الأمر فإذا هم أكثر شوقا منه للخروج)٣

وإلى جانب ذلك حظي "عبد الله بن يحيى" آخر عام ٤١٢٨/ أغسطس-سبتمبر٧٤٦ بانضمام أبو حمزة "المختار بن عوف الأزدي" من أهل البصرة وهو رجل من المحكمة عند الطبري٥، ومن الخوارج الإباضية عند ابن

---

١ إبن المؤيد، غاية الأماني ١: ١٢٤ . وانظر د معروف، الخوارج ص١٨١ نقلا عن الأغاني ٩٧/٢٠

٢ د النامي ، دراسات عن الإباضية ص ٦٥. ومصدره الأغاني،١٣/ ١١٢؛ جميل بن خميس، قاموس الشريعة، قسم ٨٨، الصفحة التي تتعلق بالموضوع.

٣ د. معروف، الخوارج، ص ١٨١. ومصدره الأغاني ٩٧/٢٠

٤ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الفكر/مصورة ١٣٩٩/١٩٧٩،ج ٩ ص٧٨ .وانظر جريرة ما أشرنا إليه من التعميمات فيما سلف.

٥ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ،ج ٩ ص١٢٩

الأثير١ (وكان يوافي كل سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف "مروان بن محمد" وآل مروان .. فلم يزل يختلف كل سنة حتى وافى الموسم "عبد الله بن يحيي" في آخر سنة ١٢٨[٧٤٦] فقال له: يارجل أسمع كلاما حسنا أراك تدعو إلى حق فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي؛ فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه ابو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان) ٢ أما المسعودي فيذهب إلى أن "عبدالله بن يحيي" (خوطب بأمير المؤمنين، وكان إباضي المذهب من رؤساء "الخوارج" وذلك في سنة ١٢٩[٤٦-٧٤٧])٣ويذكر د. "معروف" عن "أبي الفرج": أن "عبد الله بن يحيي" تلقى بيعة "أبي حمزة" بعد وصوله إلى حضرموت (وهناك بايعه أبو حمزة أميرا للمؤمنين)٤ ويقول نقلا عن "المسعودي" أنه (لما اشتد أمر عبد الله بن يحيي أطلق عليه أصحابه لقب طالب الحق وخاطبوه بإمرة المؤمنين)٥ ونعتقد أنه لم يقم بالثورة إلا بعد أن بويع بالإمارة. وهذا ما تقضي به طبيعة الأشياء.

لكن علينا أن نتوقف أمام نقطتين نستجليهما أونثير تساولا حولهما، من أجل المزيد من دراستهما. وكلا النقطتين توصلان إلى جواب ترجيح، لا جواب قطع، الأولى أن القول بخروجهم على الظلمة، يعارض مانسب إليهم

---

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر-داربيروت ١٣٨٥/١٩٧٠ ج ٥ ص ٣٥١.

٢ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ،ج ٩ ص٧٨. وانظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٥، ص/٣٥١

٣ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: كتاب التحرير١٣٨٧/١٩٦٧، ج٢ ص،١٩١. وانظرمعروف، الخوارج

٤ د. معروف، الخوارج ، ص، ١٨٠. مصدره الأغاني، ٢٠: ٩٩. وفي غاية الأماني أن أبو حمزة وغيره من رجال الإباضية، وفدوا إلى عبد الله (غاية الأماني١: ١٢٤)

٥ د معروف، الخوارج ص،١٨١، ونقلا عن المسعودي: مروج ٣، ١٧٢

من قول بالتقية[١] فكيف تخرج على الظلمة؟ هل غيرت ما تؤمن به؟ أم أن مانسب إليها غير صحيح؟ أم اعتبرت أن التقية تنتهي بمجرد الاعتقاد بأن النصر أصبح موثوقا منه؟ أم أن "عبد الله بن يحي" نفسه لا يستجيز التقية؟ عدة أسئلة تبحث عن جواب. الثانية أن القول بأنه بويع بإمرة المؤمنين؛ تنافي القول بأن الإباضية-كما نقلنا عنهم من قبل- لا تبيح دعوة أمرائها بإمرة المؤمنين. ولعله لما أطلق على نفسه لقب "طالب الحق" ظُن أنه بويع بالخلافة. ومما يعزز القول بعدم مبايعته بالخلافة أن خُطَبَ قائده الشهير "أبو حمزة" قد خلت من ذكر خلافته. أما المؤرخون اليمنيون الهادويون فلمولن نجد عندهم جوابا شافيا لأن الإمامة عندهم وعند الشيعة الجعفرية غير الخلافة لأن الخلافة اختارها الصحابة يوم السقيفة[٢] أما الإمامة فبالنص. ومن هنا فإننا نقف موقف الحيطة من قول المسعودي" وغيره أنه بويع بالخلافة العامة ولكن القول بإمامته على الإباضية يحظى بالقبول، لإن إمامته –من الناحيةالتاريخية- حُصرت فيهم ومن أهل معتقدهم لا إمرة المؤمنين العامة.

*

بعد ذلك نعود إلى مواصلة حديث التاريخ.

لم يتحرك "عبد الله بن يحي الكندي" إلا في ظل أهداف واضحة نجدها في خطابه التفويضي إلى حاكمه "عبد الرحمن بن محمد" (إننا لا نقطع الطريق على الناس، ونقتلهم لمجرد رؤيتهم، من غير أن ندعوهم أولا إلى إدراك الحقيقة.إن ذلك الذي يقبل بها يتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها

---

[١] عمرو النامي: دراسات عن الإباضية، ص ٥٦. ومصدره المبرد الكامل، ٣: ٩٨٨-٩٨٩

[٢] قال الهادي بن إبراهيم الوزير إن الخلافة (شيء مصطلح سماه المسلمون) (حاشية في كتابه "ثبت بني الوزير" ، مخطوط)

المسلمون(الإباضية) وهو خاضع لجميع التزاماتهم أما الذي ينكر الحقيقة ويقاتلنا نقاتله نسأل الله أن يؤيدنا ضده)[١] وكذلك نجدها في رسالة له يقول فيها: (هذه سيرتنا نحن لا نروع المسلمين، أو نكمن لهم، نحن لانعاقب الأبريا عن المجرمين ولا الطيبين عن الأشرار، ولا المرأة عن الرجل ولا الصغير عن الكبير")[٢] ويقول: (إن من يقاتلنا نقاتله ونبحث في ممتلكاته لنرد إلى أصحابها تلك الحقوق التي استولى عليها، ونعيد إليه ماهو حق له من غير أن يكون قد آذى بسببها أي إنسان أخر، ونسلمها إلى ابنائه وورثتهم. لاغنيمة ولا أسرى يمكن أن تؤخذ من أهل القبلة(المسلمين) لأنهم ليسوا بالمشركين الذين تنهب أموالهم وتؤسر نساؤهم وأبناؤهم، على أن أهل القبلة فئتان إحداهما تمتثل لما هو حق وتتمسك به والثانية تفعل الجور وتصر عليه)[٣]

وأعلن قائده الشهير "أبو حمزة المختار" بعض مبادءهم: (أيها الناس، إننا نخيركم في ثلاث خلال أيما شئتم فخذوا أنفسكم، رحم الله إمرأ أخذ الخيار لنفسه: إما قائل بقولنا ودائن بالذي قلناه، حملته نيته على أن يجاهد معنا بنفسه فيكون للمجاهد منا ومن قسم هذا الفيئ ماله. وعارف بهذا الأمر مقيم في داره يدعو إليه بقلبه ولسانه فعسى أن يكون أحسن منزلة منا. وثالث كره قولنا فيخرج آمنا على أهله وماله، ويكف عناده ولسانه،

---

[١] د. النامي ، دراسات عن الإباضية ص ٦٦، ومصدره: جميل بن خميس، قاموس الشريعة ق٨٨

[٢] د .النامي ، دراسات عن الأباضية ص ٦٦ ومصدره: جميل بن خميس، قاموس الشريعة ق٨٨

[٣] د النامي ، دراسات عن الإباضية ص ٦٦. ومصدره جميل بن خميس،ق٨٨ ومن الواضح أن المترجمان لم يرجعا إلى النص الأصلي من كتاب لين خميس ولكنهما ترجماه من الإنكليزية راسا.

فإن ظفرنا ولم يعرض نفسه لم نسفك دمه، وإن نحن قُتلنا كان قد كفي مؤنتنا، وعسى الآ يعمر في كفره إلا قليلا) ١

بهذه المبادئ التي تختلف عن "مبادئ الأزارقة" رفع "طالب الحق" راية الثورة وسار على ضوءها، وبسرعة استولى على "حضرموت". و(قبض على عاملها "إبراهيم بن جبلة الكندي" وسجنه ثم أطلقه)٢ وبعد فوزه هذا كتب إلى أصحابه في "صنعاء" بأنه قادم إليهم، واستخلف على "حضرموت" "عبد الله بن سعيد الحضرمي" وقصد "صنعاء" في ألفين من رجاله ٣ عام ١٢٩/٤٦-٧٤٧. وكان عاملها "مروان بن القاسم بن عمر الثقفي"٤ والتقى الطرفان في "لحج" فهُزم "مروان" وتراجع إلى "صنعاء"، وبعث بجيش من أهل الشام تعداده ثلاثة آلاف رجل لصد "طالب الحق" فهزمهم وتابع سيره الظافر إلى "صنعاء" فدخلها في نفس عام ١٢٩/٤٦-٧٤٧ وبدخوله إليها استحوذ على "اليمن" كله٥ (وسار بالناس سيرة حسنة وأظهر العدل)٦ وبحسب "رواية الإصفهاني"- كما نقلها د. "معروف"- آوى إليه بعد استيلائه

---

١ د.النامي ، دراسات عن الإباضية ص ٦٧. ومصدره جميل بن خميس، قاموس الشريعة ق: ٨٨

٢ ابن المؤيد، غاية الأماني، ج ١،ص، ١٢٤-١٢٥. ويذكر د. معروف أنه طرد عاملها ولم يذكر سجنه (الخوارج، ص، ١٨١.نقلا عن الأغاني ٢٠ ،٩٧

٣ إبن المؤيد، غاية الأماني، ١: ١٢٤. الخوارج،١٨١

٤ ابن جرير، تاريخ صنعاء، ص٣٢-٣٣.

٥ د.معروف، الخوارج ص ١٨١ وانظر محمد بن محمد زبارة، خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، مراجعة وتحقيق أحمد بن محمد زبارة. واشنطن- صنعاء: مركز التراث والبحوث اليمني الطبعة الأولى١٤١٨ /١٩٩٨، ص،١٤٢.

٦ إبن المؤيد، غاية الأماني ١: ١٢٤. وقال معروف (قيل أنه سار سيرة حسنة) الخوارج،ص،١٨١.

على "صنعاء" كل الخوارج أو بحسب تعبيره (كثُرت جموعه وأتته الشراة من كل حدب وصوب)[١]

من الخير أن نوضح "الشراة" لقب لكل "الخوارج" كـ "المحكمة" و "الحرورية" على حسب قول معظم المؤرخين، وذهبت قلة إلى أن "الشراة" فرقة. لكن يبدو أن تسمية الشراة هي إطار عام يشمل "الخوارج" جميعا، ولا يوحي الإسم بفرقة منسوبة كـ "الأزرقية" و"الإباضية" و"الصفرية" ولا يوحي كذلك بمعتقد فكري، بقدر ما يوحي بطريقة استشهادية، وأغلب الظن أن "الشراة" صفة لكل من يريد أن يشتري الجنة وتعبيرا عن هيجان ديني يدفع إلى التضحية بشجاعة فذة. وليست فرقة خاضة من فرق"الخوارج" وعندئذ نفهم مانقله د. "معروف" عن "الإصفاني" من أن "الشراة" أتته من كل حدب وصوب؟[٢]

*

نعود بعد هذه الملاحظة إلى حديث التاريخ

من "صنعاء" تقدمت قواته بقيادة الخطيب المصقع "أبو حمزة المختار" فوصلت في ذي ٩ الحجة ٢٠/١٢٩أغسطس٧٤٧ إلى "عرفات" والناس وقوف فيه؛ فهادنه والي المدينة ومكة والطائف وأمير الحج آنذاك "عبد الواحد بن سليمان" حتى ينفر الحجيج من "مكة"، فوقف "أبو حمزة" واصحابه على حدة

---

[١] معروف، الخوارج،ص،١٨١.

[٢] د. معروف، الخوارج، ص، ١٨١ ومصدره الأغاني، ٢٠: ٩٧- ٩٨. وقال د معروف: أن الشراة لقب عام للخوارج، لكن بدير بن حميد ذهب إلى أنهم فرقة (من أدب الحركات الإسلامية ص ١٤٣) ولعله تابع الملطي الذي يخالف إجماع المؤرخين الذين ذكرهم معروف(الخوارج ، ١٩٢)

بين الناس في "عرفات"[١] وينقل د. "معروف" عن "الإصفهاني" أن "عبد الواحد" بعث إليه بجماعة من ذرية الخلفاء الراشدين من أجل هدنة فرحب بأولاد "أبي بكر" و"عمر"، وعبس في وجه أولاد "عثمان" و "علي"[٢].

(فلما كان يوم النفر الأول [١٠ الحجة١٢٩/ ٢١ أغسطس٧٤٧] تعجل "عبد الواحد" وترك "مكة" فدخلها الخارجي بغير قتال)[٣] عام ١٢٩ /أغسطس٧٤٧. ويؤكد "إبن الكثير" رواية استعجاله بالفرار هذه بقول بعض الشعراء يهجوه:

زار الحجيج عصابة قد خالفوادين الإله ففر عبد الواحد

ترك الحلائل والإمارة هاربا ومضى يخبط كالبعير الشارد

لوكان والده تنصل عرقه لصفت موارده بعرق الوارد[٤]

ولما وصل "عبد الواحد" الى المدينة جهز الجيوش وسيرهم سريعا. لكن رواية الإغاني كما ينقلها عند د. "معروف" تذكر أن الوالي على المدينة كان هو "عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز" وأن الخليفة "مروان بن الحكم" أمره بتوجيه جيش لمحاربة "أبي حمزة" فسير ثمانية آلاف جلهم من قريش والأنصار والتجار، ومعظمهم بدون تجربة، فبعث إليهم "أبو حمزة" يستعفيهم من قتالهم، فأبوا ذلك فاستخلف ""إبرهةَ بن الصباح" على "مكة" وخرج

---

[١] ابن كثير،البداية والنهاية، المجلد الخامس ج ١٠،ص ٤٤٧

[٢] د. معروف، الخوارج ص،١٩٨. ومصدره الإصفهاني ،٢٠/٩٩. وانظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك،ج٩،ص ١٢٩.ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج٥،ص، ٣٥١. ويضع ابن المؤيد استيلاءه على مكة والمدينة معا عام ١٣٠/ (غاية الأماني، ١: ١٢٥) .

[٣] ابن كثير،البداية والنهاية، المجلد الخامس ج ١٠،ص ٤٤٧.

[٤] ابن كثير، البداية والنهاية، م ٥،ج ١٠ص، ٤٤٧-٤٤٨. ولعلها بعرق الوالد

لملاقاة أهل المدينة[١]. وفي تسع عشرة ليلة خلت من صفر١٣٠/ أكتوبر ٧٤٨ إلتقى "أبو حمزة" مع القوات الأموية في "قديد" فصفّاها ودخل "المدينة" ظافرا، ومن على منبر الرسول العظيم ألقى خطبته الشهيرة البليغة المؤثرة[٢].

أقام "أبو حمزة" في المدينة (ثلاثة أشهر بقية صفر وشهري ربيع وبعض جمادى الأولى)[٣] –أي من أكتوبر- إلى يناير٧٤٨- ويروي "ابن كثير" عن "الواقدي" أنه (أحسن السيرة في أهل المدينة، فمالوا إليه حتى سمعوه [يقول] برح الخفاء. أين عن بابك نذهب: من زنا فهو كافر ومن سرق فهو كافر فعند ذلك أبغضوه)[٤] ولكي نهضم التكفير هذا فلا بد من أن نأخذه بمعنى "كفر نعمة" لايستحل بموجبه دما ولا مالا. وبدون هذا سوف نواجه حالة أخرى مناقضة لما يعرف عنهم من عدم التكفير الديني الصرف[٥]

إنزعج الخليفة الأموي "مروان بن محمد" لانتصارات "أبي حمزة"، فجهز حملة عسكرية جيدة بقيادة "عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي". تعكس مدى ما كان يحس به "مروان" من خطورة الثورة الإباضية، ويحدثنا المؤرخون أن قوام الحملة أربعة آلاف انتخبهم "مروان" من بين عناصر جيشه، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرسا عربية وبغلا لثقله. ثم أمر

---

[١] د. معروف، الخوارج، ١٨٢. ومصدره الأغاني، ٢٠/١٠٠-١٠١ . وانظر ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ٥،ص ٣٨٨. وانظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك ، ٩، ص، ١٠٦،

[٢] انظر خطبته البليغة في البداية والنهاية م ٥ ج ١٠ ص، ٤٤٩-٤٥٠ وانظر االبن الأثير ، الكامل ، ٥، ٣٨٩-٣٩٠

[٣] ابن كثير، البداية والنهاية م٥ ، ج١٠، ص: ٤٤٩ إبن الأثير، ، الكامل ، ٥، ٣٩٠.

[٤] إبن كثير، البداية والنهاية، م٥،ج١٠،ص، ٤٥٠

[٥] نجد صدى هذا الرأي عند إباضية شمال اليمن.

قائده الا يكتفي بإخراج "المختار" من "الحجاز" وإنما يتتبعه إلى "اليمن" ليقتل رئيس الإباضية نفسه.

في نفس الوقت بعث "أبو حمزة" من المدينة قائده "بلج بن عقبة" في ستمأة مقاتل فقط١ فالتقى الجمعان في "وادي القرى"٢ في جمادى الأولى٣ من من عام ١٣٠/يناير٧٤٨ حيث دارت معركة شرسة أستشهد فيها "بلج" وهزمت قواته، ولما بلغ أهل المدينة إستشهاده توجه "أبو حمزة" إلى مكة واستحلف في المدينة أجد رجاله، لكن أهل المدينة ثاروا بمن بقي فيها من "الإباضية"، فقتلوا منهم خلقا كثيرا على قول "ابن كثيرا" ٤ أو أنهم قتلوهم عن آخرهم إنتقاما لقتلى "قديد" كما يذهب مصادر د:"معروف"٥

دخل "عبد الملك ابن عطية" المدينة(وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها) ٦. وبعد أن أقام بها شهرجمادى الثانية٧ ١٣٠/ فبراير٧٤٨ توجه صوب الجنوب الجنوب متتبعا "الإباضية"، ملحقا بها الهزائم في "بيشة" و "صعدة"٨، وبينما

---

١ أبو الفرج الإصفهاني: الأعاني، تونس –بيروت: الدار التونسية للنشر، طبعة ١٩٨٣ ج، ٢٣، صص،١١١-١١٢

٢ إبن كثير، البداية والنهاية، م٥،ج١٠،ص، ٤٥٠. وانظر إبن جرير، تاريخ صنعاء ،٣٨. د معروف، الخوارج،ص، ١٨٢

٣ نستنتج ذلك من قول ابن كثير السابق ذكره

٤ إبن كثير، البداية والنهاية، م٥،ج١٠،ص، ٤٥٠. وانظر إبن جرير، تاريخ صنعاء، ٣٨. د معروف، الخوارج،ص، ١٨٢

٥ د معروف، الخوارج، ص، ١٨٢

٦ إبن كثير، البداية والنهاية،، م٥،ج١٠،ص، ٤٥٠١.

٧ إبن الإثير، الكامل، ج،٥،ص،٣٩٢.

٨ إبن المؤيد، غاية الأماني، ١: ١٢٥.

كان في طريقه إلى "صنعاء" خرج إليه "عبد الله بن يحيى" بمن بقي معه من الشراة، فدارت الدائرة عليه في "كسة"١ واستشهد،(وحمل رأسه إلى مروان بالشام) ٢ والتجأ الباقون إلى حضرموت٣ ولم يذكر المؤرخون في المصادر المتاحة أرض المعركة التي دار فيها القتال.

استقر أمر عبد الملك بصنعاء وبقي عامل طالب الحق بحضرموت إلى حين، ومعنى ذلك أن الثورة لم تنته بعد ولعل لحسن عدالة حكم "طالب الحق" بعد أن أن أقام في (اليمن سنة وأربعة أشهر) ٤ (سار بالناس سيرة حسنة وأظهر العدل.)٥ أثرا في استمرار المقاومة الإباضية وغيرها. ويلخص ويلخص البرفسور "مودلينغ" حركة "طالب الحق" بقوله (اغتصب الإباضيون زمام السلطة في حضرموت بقيادة إمامهم طالب الحق في نهاية فترة الخلافة الأموية "١٢٩/٤٦-٧٤٧")٦.

وقبل أن نطوي صفحة ثورة "طالب الحق" علينا أن نشير إلى أن إنضمام كل فرق "الخوارج" تحت رايته، تذكرنا بوجود تشابه بين ثورة الإمام "زيد بن علي" وثورة "طالب الحق" في هذا الإلتفاف على تباعد فيما عداها؛ فقد التف حول "زيد" جميع ما يسمى بأهل السنة، والتف حول "طالب الحق" كل فرق الخوارج، وكان استشهاد "زيد" قد عمق الجرح السني والشيعي وقرّب من

---

١ الإصفهاني، الأغاني،ج،٢٣ ص، ١٤٧ ويقول الشاطري أنها تبالة(أدوار١: ١٣٣)

٢ إبن الإثير، الكامل، ج،٥،ص،٣٩٢. وانظر ابن كثير، البداية والنهاية،م٥،ج١٠ص، ٤٥١

٣ إبن المؤيد، غاية الأماني، ١: ١٢٥.

٤ إبن جرير: تاريخ صنعاء ص،٣٨. وانظر ، قرة العيون ١١٣.

٥ إبن المؤيد، غاية الأماني ١: ١٢٤ .

٦ ويلفرد مودلينغ: الإسلام في اليمن ص،١٧٤، مجلة المسار العدد ١٤

نهاية الحكم الأموي، وكذلك كان استشهاد "طالب الحق" قد عمق الجرح الخارجي وسبب الإسراع بنهاية الحكم الأموي.

*

بعد تلك الملاحظة الآنفة نعود فنواصل حديث التاريخ:

لم يكن استشهاد "طالب الحق" آخر معارك "الإباضية" في "اليمن"، وهي وأن كانت ضربة موجعة وقاسية لكنها غير حاسمة؛ لأن "الإباضيين" من بعد استشهاده، استمروا في مقاومتهم فترة من الزمن؛ وفي حديث التاريخ: أنه بعد بضعة أشهر من مقتل طالب الحق خرج على "عبد الملك ابن عطية" أحد أصحاب "عبدُ الله بن يحيى" في آل "ذي الكلاع" بـ "الجند"، فبعث إليه أحد أقرباءه فهزمه وقتله، وقتل عامة أصحابه. ثم ما لبث أن خرج "يحي بن كرب الحميري" على القائد الأموي في ساحل البحر- بعد أن انضمت إليه بقايا "الإباضية"- فأرسل لهم "عبد الملك ابن عطية" من هزمهم، ففروا إلى "حضرموت" وكان ما يزال بها عامل طالب الحق "عبد الله بن معبد الجرمي"[١].

أدرك "عبد الملك ابن عطية" أنه لا بد من وضع حد "للإباضية" في آخر معقل لهم بـ "حضرموت" حتى يقطع دابرهم؛ فاستخلف على "صنعاء" ابن أخيه وخرج إليهم، وفي أثناء حصاره لهم ورد عليه أمر الخليفة بالعودة إلى "مكة" ليحج بالناس، فسلبه هذا الأمر الإنتصار عليهم ففك حصاره و (صالح "أهل حضرموت" وسار في نفر قليل)[٢] اما رواية "ابن الأثير" فتوحي أنه كان مايزال بـ "صنعاء" عندما أتاه أمر الخليفة وأنه (خلف عسكره

[١] د. معروف، الخوارج،ص، ١٨٣. ومصدره الإصفهاني١١٣،٢٠-١١٤

[٢] ابن المؤيد، غاية الأماني،١: ١٢٥-١٢٦

وخيله بصنعاء ونزل الجوف فأتاه أبناء جهابة١ المراديان في جمع كثير، وقالوا له ولأصحابه أنتم لصوص فأخرج "ابن عطية" عهد على الحج وقال هذا عهد أمير المؤمنين بالحج وأنا ابن عطية، قالوا هذا باطل فأنتم لصوص فقاتلهم ابن عطية قتالا شديدا حتى قتل)٢ وبعثوا برأسه إلى أصحابهم بـ "حضرموت"٣. وكان ذلك ردا بليغا على بعث رأس "طالب الحق" إلى "دمشق"

إزاء هذه الضربة الموجعة ثار "عامل صنعاء" –وهو ابن أخيه- على قتل عمه فبعث بعسكر (فلم يبق أحدا ممن اشترك في قتل ابن عطية ولا من الإباضية إلا قتله)٤

هذا النص يدل على أن جماعات من غير "الإباضية" قد اشتركوا في قتل "عبد الملك ابن عطية". ولا نعرف دوافعهم؟ وهل كان ذلك تعاطفا معهم؟ الذى يغلب على الظن أن كراهية الحكم الأموي، كان القاسم المشترك. ولأننا لا نعرف حتى الآن أسماء من اشترك مع "الإباضية" من القبائل فلا تقدر أن نقطع بقول.

لا تمدنا المصادر المتاحة عن ما حدث بعد ذلك وهل بقي عامل "طالب الحق" فيها؟ وهل بويع أميرا للإباضية؟، وقد يكون ذلك الصمت بسبب انصراف المصادر التأريخي تلقاء حدث أكبر يحتدم بضراوة واستماتة بين الأمويين والعباسيين، ويبدو أن انشغال "مروان بن محمد"-آخر الخلفاء الأمويين- بمعاركه مع القوات العباسية قد شغلته عن معارك الأطراف

---

١ وفي البداية والنهاية: "أميران يقال لهما ابنا حمانة" (م٥،ج١٩،ص، ٤٥١)

٢ إبن الأثير، الكامل،ج،٥ ص، ٣٩٢. وانظر ابن المؤيد، غاية الأماني ١: ١٢٥. والخوارج ١٨٣. ومصدره ابن الأثير ٥: ٣٩٢. مروج الذهب ٣: ١٧٢

٣ د. معروف، الخوارج، ومصدره الأغاني ٢٠/ ١١٣-١١٤

٤ د. معروف، الخوارج ص ١٨١ ومصدره الأغاني، ٢٠: ٩٧- ٩٨.

البعيدة، كما أن العباسيين ظلوا بعد انتصارهم عام ١٣٢/٤٩-٧٥٠ في شغل عنها حتى ثبتوامواقعهم.

وهكذا فبينما كانت العاضفة تدمدم في الأجواء البعيدة استعادت "الإباضية" نشاطها وعمدت إلى إعادة تنظيم نفسها في هدوء حتى عام ١٣٤/٥١-٧٥٢ حيث نجد لهم ذكرا عند "ابن الأثير" وهو يحدثنا أن "شبيان بن عبد العزيز اليشكري" –من "الخوارج الصفرية"- ركب إلى "عمان" فرارا من القائد العباسي "خازم بن خزيمة" لكن "الجُلندي"-وهو إباضي-١ قاتلهم (واشتد بينهم القتال فقتل شيبان ومن معه)٢ والحق أن "الجلندي" لم ينتصر ينتصر في هذه المعركة نصرا يثبت أقدامه، بل كان نصرا قاده إلى النهاية؛ فالصراع بين الجناحين كان غلطة قاتلة؛ إذ أضعف الجانبين معا، ومكنت

---

١ أما ابن كثير فلا يذكر شيبان في هذه القضية ويتميز بقوله أن الجلندي من الصفرية (قتل أمير الخوارج الصفرية وهو الجلندي) (البداية والنهاية، م ٥، ج١٠، ص٤٧٢،) فهو عنده صفري وليس إباضي.

٢ ابن الأثير، الكامل، ٥، ص٤٥٢،. وانظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٩، ص، ١٣٤. اختلف المؤرخون في مكان قتل شيبان وقد لخصها د معروف فذكر للطبري قول بأنه قتل في سجستان عام ١٣٠/٧٤٧، (وفي رواية أخرى للطبري أن شيبان سار إلى عمان فقتل هناك(تاريخ،١٩٤٩/٩) بينما يقول ابن كثير: وهلك شبيان بالأهواز(البداية والنهاية،٢٩/١٠) وفي رواية ثالثة للطبري أن أبا مسلم الخراساني أرسل إلى شيبان بن سلمة الحروري يدعوه إلى البيعة له فرد عليه شيبان بدعوته إلى بيعته فبعث له أو مسلم من قاله في سرخس(تاريخ،١٩٩٦/٩)(د. معروف، الخوارج، ص، ١٨٠ ح ٤٩) والذي في الجزء العاشر لابن كثير: أن أبا مسلم الخرساني في عام ١٣٠ أرسل إبراهيم بن بسام إلى شيبان بن سلمة الحروري ليقاتله فأقتتلا فهزمه إبراهيم وقتله وتتبع أصحابه (ابن كثير،البداية والنهاية، المجلد الخامس ج ١٠،ص ٤٤٨)ويظهر أن هناك شبيان آخر، إذ يذكر ابن الأثير إسم شيبان الذي قتل بعمان بأنه شبيان ابن عبد العزيز اليشكري وليس شيبان بن سلمة الخروري، كما يضع تاريخ مقتله عام ١٣٤، وليس ١٣٠(ابن الأثير،الكامل، ٥،ص ٤٥٢) وبهذا أخذنا.

القائد العباسي "خازم" أن يصطاد "الجلندي" بعد معارك ضارية، حيث اثبتت ضراوتها مدى الخسارة من قتل "شبيان"؛ فلو بقي حيا لكان وقوفهما معا في وجه "خازم" أشد صلابة، لكن قص "الجلندي" لجناح "شيبان" قد أضعف جناح "الجُلندي" نفسه فلم يستطع بعد ذلك أن ينقض على القائد العباسي أو ينجو منه، فوقع مخضبا بدمه في الصحراء بعد أن قاتلهم (قتالا شديدا وكثر القتل يومئذ في أصحاب خازم وقتل منهم أخ له من أمه في تسعين رجلا) ١ فإذ أدركنا شراسة هذه المعركة بجناح واحد فكيف سيتكون لو ظل الجناحان متعضدين؟ يذكر "ابن كثير" أنه قتل من الخوارج (نحوا من عشرة الآف وبعث برؤسهم إلى البصرة) وزاد "ابن المؤيد" على عدد ابن كثير في معركة الجُلندي تسعمائة فكانت عنده ١٠٩٠٠ قتيل٢ وتبدو المبالغة في هذه الأعداد واضحة، خاصة إذا ذكرنا أن قوة "ابن خازم" لم تتعد عند "ابن كثير" سبعمأة رجل٣ إلا أنها تدل على وجود اتباع كثر.

ولم تكن هذه المعركة أيضا فاصلة، إذ جاء في أخبار حوادث عام٢٨٠/٨٩٣ أن "أحمد بن نور جاء من البحرين (إلى عمان فاستفتحها وأوقع بطائفة من الإباضية، وقد كان لقاه مقدمهم "الصلت بن مالك" في مآتي ألف فانتصر عليهم أحمد بن نور وقتل منهم مقتلة كبيرة وحمل رءوسهم إلى بغداد) ٤ وقد يكون العدد الإباضي مرة ثانية مبالغ فيه لكنه يدل على كثرة لاشك فيها وتزايد مستمر حتى أن "المسعودي"(ت٣٤٥/٩٥٦أو

---

١ ابن الأثير، الكامل، ٥، ص،٤٥٢. وانظر الطبري،تاريخ الأمم والملوك، ٩، ص، ١٣٤

٢ ابن المؤيد، غاية الأماني١،: ١٢٩.

٣ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥،ج١٠،ص، ٤٧٢.

٤ ابن المؤيد، غاية الأماني١: ١٦٧.

٣٤٦/ ٩٥٧) لما دخل "حضرموت" وجد أن أكثرهم كانوا من "الإباضية"[١] وهكذا بقيت "الإباضية" مذهبا ظاهرا في "حضرموت" حتى خروج "الأيوبيين" إلى "اليمن" في القرن السادس عام٥٦٩/٧٣-١١٧٤بقيادة "توران شاه" الأيوبي[٢]. وليس هنا مجال تفصيل الحديث عنهم في "حضرموت" لأن هذا المقال مخصص لإباضية أعالي الشمال.

(٢)

إذ كان الثقل الإباضي قد تركز في "حضرموت" إلى القرن السادس الهجري، فقد انتقل بعد ذلك نهائيا إلى "عمان"، ولأن هذا الحديث هو عن "الإباضية" في أعالي الشمال فقد حان الوقت أن نولي وجهتنا قبل أعالي الشمال، لنبحث عن "الإباضية" في مواقع متعددة طمرها الزمن والصراع، إلا أن علينا أن نشير-قبل الصعود إلى الجبال- إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي أننا -حتى الآن- لانعرف شيئا عن علاقات "إباضية الجبال" بـ "إباضية حضرموت" أو إباضية عمان" معرفة موثقة، ولا بد أن تكون هناك علاقات وهناك اتصلات، ومن غير المتوقع ألا تكون هناك علاقات ولا تكون هناك اتصالات، لكنا لم نعثر حتى الآن على ما يلقي الضؤ على طبيعة وآلية هذه الاتصالات المفقودة، والعلاقات الغائبة.

ونقطة أخرة لاتقل أهمية وهي: كيف وصلت الإباضية إلى شمال اليمن. فهذه المسئلة ما تزال كطوية في الضباب، وكلما نعرفه أننا وجدناها هناك جاهزة مكتملة، لها ارض محصنة، واتباع متفانون، ولها قوة وايد، وأنها

---

[١] د. معروف، الخوارج ، ١٨٣. نقلا عن المسعودي ، مروج الذهب٣، ١٧٤

[٢] قال ابن المؤيد (قال بعض المؤرخين لم يزل أهل حضرموت على رأي الخوارج إلى خروج بني أيوب إلى اليمن فأظهروا مذهب الشافعي وعقيدة أهل السنة فرجعوا [إي الأباضية] إلى ذلك) غاية الأماني١: ٣٢١. وانظر: المقتطف .١٢٧.

-ضمن قوى كثيرة- فرضت نفسه على الساحة فترة من الزمن. ونعترف أننا لم لم نتوصل بعد إلى بداية المنطلق، لكنا- كما نؤمل- سنصل إليه أثناء الطريق المفضي إليها، إذا ما تابعنا البحث، وتحملنا المزيد من الإستقصاء، لأن الوصول إلى معرفتها يعتبر جزءا مكمل للبحث لا يستغنى عنه، ولابد من استيضاحه، والوصول إليه، ولعلنا نحظى بعدة جديدة في سفراتنا القادمة فنصل الى معرفة البداية المنشودة، أما الآن فليس غير الإستنتاج من سبيل.

وبناء عليه فليس أمامنا إلا استنتاجان، فإما تكون الإباضية قد أوجدت في الشمال أوكارا فرخت فيها في مرحلة ماقبل ثورة "طالب الحق"، وأن هذه الفراخ ظلت تروض أجنحتها قبل أن تحلق عاليا، وأن تلفت النظر إليها. وإما أن بعض علمائها -في مرحلة ما بعد ثورة "طالب الحق" وبعد تعرضها للهزائم المتكررة- قد فروا إلى أعالي الشمال لينجوا بأنفسهم في أوكار جبلية قوية التحصين، من مطاردة قاتلة، ثم استمروا بها متحصنين كأفراد، وأفخاذ قبائل. وفي الفترة التي سبقت ظهور الدول المستقلة(الزيدية والإسماعيلية) كانت "اليمن" تبحث عن زاد فكري، وكانت تربتها الخالية في وضع تتقبل الإفكار المتناقضة فتُنبِتُ كل شيء، فلما ملئت بغراس "الهادوية" و "الشافعية" و "الإسماعيلية" تساقطت أوراق "الإباضية" و "الحنفية" و "المالكية"، مع فارق واحد هو أن تلك المذاهب معروفة البداية زمانا وأمكنة، أما "الإباضية" في أعالي الشمال فإن بدايتها-حتى الأن- غير معروفة، ولأن كل شيء له بداية وإن خفيت معرفة بدايتها فلابد "للإباضية" من بداية على كل حال، وعلى حسب مقرؤاتي فإن فرارهم إلى الشمال أو تمركزهم فيه مما تقضي به طبيعة الأشياء حيث تكون الجبال الحصينة-عادة- هي مأوى المطاردين.

لابد من الإشارة أيضا إلى ماسبق أن قلناه في الحديث السابق عن عدم تمكننا من معرفة أي من فرق "الإباضية" كانت في الشمال، ولا عثرنا على ما يعطينا رأيا واضحا عن معتقدهم. ولعل الباحثين يوالون جهودهم ويستخرجون الحقائق. ولسنا معنيين في هذا الحديث بالذات بتاريخ "الفكر الإباضي"، ولكن بـ "الوجود الإباضي" ككتلة مترابطة في شمال اليمن بما يقتضية مقال مختصر، يصلح أن يكون بداية لأبحاث مستفيضة. ولعلنا تعود فنفكك تلك الكتلة فنتحدث عن فكرها وأدبها والمزيد من تاريخها. على كل حال فمن المؤكد أنه كان "للإباضية" وجود فكري في الشمال عندما ظهرت "الدولة الزيدية" بقيادة الإمام "الهادي" عام ٨٩٥/٢٨٢ في أعالي الشمال الغربي –أي بعد ما يزيد على ١٥٢عاما من فشل ثورة "عبد الله بن يحيى"- وأن هذا الحضور الفكري كان قويا بحيث أنه استدعى دخول الإمام "المرتضى" معهم في جدل فكري عكسه "كتاب مسائل العوقي" للإمام المرتضى، نسبة إلى اسم العلامة الإباضي "موسى بن هارون العوقي" (صاحب المسائل التي تعرف بمسائل العوقي[١] والتي أجاب عليها الإمام "محمد بن يحيى" وأخوه)[٢] وكذلك دخول أخيه الإمام الناصر هذه المعركة لدعم شاعره العلامة "عبد الله بن أحمد التميمي" الذي كان من نتائجه كتابه (في تفسير .. غريب القرآن وغوامض معانيه) وهي في الأصل مسائل (كثيرة سألته[اي

[١] يذكر الوجيه للناصر كتابا اسمه أجوبة مسائل العوقي (أعلام المؤلفين الزيدية، عمان الأردن، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٢٠/١٩٩٩ج، ١ص. ٢٠٣) ولم يذكر للمرتضى كتابا بهذا الإسم(الوجيه، أعلام المؤلفين الزيدية، ج٢،ص. ١٠١٣-١٠١٥). مع أن نص مسلم واضح أن الأخوين اشتركا-أو ألفا- في الجواب عليه.

[٢] أبي الغمر مسلم بن محمد بن جعفر اللحجي، ، سيرة الإمام أحمد بن يحيى الناصر لدين الله، منتزعة من كتاب أخبار الزيدية من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم باليمن، عني يتحقيقها ويلفرد ما ديلونغ،إكسيتر:إسثيكا برس مع المعهد الشرقي بالجامعة أكسفورد، عام١٩٩٠ص ، ١١. وسنسميها سيرة الناصر

سألت عبد الله التميمي] عنها الإباضية، فسأل عنها الناصر لدين الله "أحمد بن يحي" عليهما السلام فأجاب في ذلك بالجواب المعروف في أيدي الزيدية اليوم وهو من جلائل الكتب في علم التفسير)١ وهناك كتاب "للناصر" في الرد على "الإباضية"٢. وإلى جانب المرتضى والناصر كان كل من العلامة "أحمد بن سليمان" الكوفي والعلامة "عمر بن إبراهيم" الكوفي اللذين دخلا في جدال مع "الإباضية" أيضا٣

تحمل هذه الكتب-التي لم نطلع عليها حتى الأن- لعدم العثور عليها- جانبا من فكر "الإباضية" ولكنه جانب منقول عن خصوم، ومقرؤ بعيون خصوم. ومهما كانت أمانتهم العلمية إلا أن البحث الموضوعي سيظل يحتفظ بشكوكه حولها، ما لم تقرأ من مصادرها هي، فقد يقرأ المتلقي ما لم يرده المؤلف بالضبط، لكنها مع ذلك تقدم مادة جيدة لدراسةٍ تقريبية،

---

[١] مسلم ، سيرة الناصر ،ص، ١٨. وللناصر كتابان في التفسير أحدهما تفسير القرآن قال عنه سزكين هو (إكمال للتفسير الذي بدأه جده وأضاف إليه أبوه وأخوه (فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي الجزء ٢، نقله إلى العربية د. محمود فهمي حجازي، ود فهمي أبو الفضل. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٨،ص. ٣٠٨) وذكر له الوجيه كتاب علوم القرأن (ص. ٢٠٢-٢٠٣)

[٢] محمد بن محمد زبارة، خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون ، تحقيق أحمد بن محمد زبارة. الناشر: مركز التراث والبحوث اليمني ، الطبعة الأولى١٤١٩/ ١٩٩٩،ج ٢: ١،ص،٨٥ عبد الله الحبشي، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، بيروت: دار القرآن الكريم الطبعة الأولى١٣٩٩/١٩٧٩، ص. ٥٥. أحمد بن محمد المطاع، تاريخ اليمن الإسلامي تحقيق عبد الله محمد الحبشي، بيروت: منشورات المدينة الطبعة الأولى ١٩٨٦م. ١٤٠٧هـ ص.١٦١. والوجيه أعلام المؤلفين١: ٢٠٣)

[٣] د. أحمد عبد الله عارف : مقدمة في دراسة الاتجاهات الفكرية والسياسية في اليمن – فيما بين القرن الثالث والخامس الهجري، بيروت، المؤسسة الجامعية الطبعة الأولى ١٤١١/ ١٩٩١. ص. ١٧٢و ١٧٦.

ولعلنا نعود إليها عندما تتوفر المصادر. أما الآن فنستمر فيما خططنا له، وفيما هو موجود حتى نظل في حدود العلم.

من خلال ما جاء في "سيرة الناصر نجد أن "الإباضية" في عام٣٠٣/١٥-٩١٦ كانت متواجدة في "مخاليف البياض" من بلد "قدم" كـ "جبل تيس" و "نضار" و"العضد" إلى "جبال خولان"، وكان لهم وجود أيضا في "مخلاف حجة"١ وفي غيرها، (قال "عبد الله بن عمر" وشاعت نسخ دعوة "الناصر" رضي الله عنه٢ في "مخاليف البياض" من "بلد قدم" وكانوا يرون رأي "الإباضية" فمنهم من قبلها، وأقرعلى نفسه بواجب ما فيها ولزم منزله، ومنهم من نفر منها وكابر عقله وتعصب لتقليده لأسرفه. قال "عبد الله بن عمر": لقد بلغني أن نسخة من نسخ دعوة "الناصر لدين الله".. قرئت بمدينة بناحية يقال لها "حجة" من مخلاف الخوارج فأخذها ناس من "أهل حجة" فمزقوها حمية على رأيهم وعنادا للحق)٣

مالبث الدعاة الإسماعيليون(التابعون لأتباع "ابن حوشب" و"الشـاوري") أن ظهروا في ("البياض"، منطقة "بني قُدَم، الجابريين")٤ وقد تم ذلك على حساب "الإباضية"، ولصالح الناصر الذي سيطر بعد فترة قصيرة على "عُذر" و "الأهنوم". ولعل انضمام أحد كبرائها الرئيس العلامة "محمد

---

١ مسلم، سيرة الناصر ، ص ٤١

٢ وكان الناصر يعرض نسخ دعوته على من يرغب في الدعوة كما فعل عندما رغب أهل السهل بالأهنوم في دعوته فقد (أمر بدعوته فقرئت عليهم) سيره الناصر ص ٣٢.

٣ مسلم،سيرةالناصر، ٣٩.

٤ مسلم،سيرة الناصر، وهذايسلمنا إلى القول أن الإسماعيلية لم تتضرر كثيرا بموت كبيرها ابن حوشب عام ٣٠٢/ ٩١٤

بن أحمد الظليمي"[١] إلى صفه. وكان "الظليمي" كما قال "عبد الله بن عمر" (رأسا من رؤوس الأباضية وعلما من أعلامهم، ولا يرى رأي آل محمد صلى الله عليه وعليهم ولا يعتقد القول بالعدل ولا يرى لآل رسول الله صلى الله عليه طاعة وقد كاتب (الإباضية)[٢]على أن تبايعه وتجعله إماما تدعو إليه وتقتدي به) [٣].

يتابع "ابن عمر" (وكان قد صار إلى "الناصر لدين الله" [عام ٣٠٣/١٥-٩١٦] رضي الله عنه[٤] إلى "خيوان" قبل نهوضه إلى المغرب فسمع كلامه ومواعظه وحججه ودعوته إلى نصرة "آل محمد" صلى الله عليه. وإيضاحه خطأ من أخطأ من فرق الأمة من "الإباضية" وغيرها فلما سمع ذلك ووعاه وفهمه وداراه لم يكابر عقله ولم يخادع نفيه ولم يقلد سلفه ولا إخوانه وأهل رأيه الأول فتاب منه وأناب ورفض رأي الخوارج، وتبرأ منه وفارق "الإباضية" ودخل في الحق واعتقد العدل والتوحيد ودعا ولده وعشيرته إلى

---

[١] تصفه سيرة الناصر بأنه (كان شريفا نجدا حميا مطاعا متدينا صاحب وفاء وحرية وعربية (سيرة الناصر ٦٧) وتصفه مرة أخرى (كان رجلا متدينا له قدرة ووفاء ورغبة في الحق وأهله)(سيرة الناصر ٧٨) وقد شارك مع الناصر في أمثر من معركة منها معركة باري في ذي القعدة ٣٠٦(سيرة الناصر ٦٧-٦٨) وفي معركة سغر طرف شظب مع قائد الناصر الكبير إبي حاشد إبراهيم بن محمد ين الضحاك (سيرة الناصر ٧٨) ولم تذكره في معركة نغاش الشهيرة التي وقعت في رمضان ٣٠٧/(سيرة الناصر ٩٩)

[٢](الإباضية) الزيادة عن روضة الحبوري. (مودلينغ)

[٣] مسلم،سيرة الناصر، ٣٢-٣٣

[٤] أعتقد أن رضي الله عنه من الناسخ وليست أصلا. فتكن على ذكر منها.

ذلك وبايع "الناصر" رضي الله عنه على حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى الطاعة والوفاء بذلك أبدا)١

وما لبث هذا الاجتماع أن أعطى ثماره فعندما خرج "الناصر" إلى "حجور" و "الأهنوم" تلقاه في محل "رجح" -مابين "ظليمة" و "الأهنوم"- ("محمد بن أحمد الظليمي" بعشيرته من "ظليمة" وهم ألف رجل وهم من "قبائل همدان" فأصلح بينهم وبين "الأهنوم"، وقطع حروبا كانت بينهم ودماء عظيمة)٢. وأكدت السيرة على وفائه بما عاهد الله عليه حتى مات (رحمة الله عليه ورضوانه)٣ وإذا أدركنا أن رئيسا واحد منهم كان تحت إمرته ألف رجل أدركنا مدى ما كانت عليه قوة الإباضية في تلك المنطقة٤.

المنطقة٤.

ويقول أستاذنا "أحمد بن محمد الشامي" أن لانضمام الرئيس "الظليمي" إلى "الناصر" أثر كبير في تلاشي فرقته٥. ولكني لا اذهب هذا المذهب فقد استمر الوجود الإباضي مبثوثا في أكثر من منطقة، ولم تكن الضربات الكبيرة التي أُلحقت بهم- عندما استولى "الناصر" على بعض أراضيهم،

---

١ مسلم،سيرة الناصر، ٣٢-٣٣

٢ مسلم،سيرة الناصر،٣٢

٣ مسلم،سيرة الناصر، ٣٣

٤ يبدو أن انضمام هذا الرئيس قد كان له اثر كبير على مستوى الواقع لقوته القبلية ولمكانته العلمية. وقد عبر عن هذا الشاعر المبدع والعلامة الكبير "عبد الله بن تميم" في قصيدة ميمية وتلقى منه جوابا عليها انظر القصيدتين في سيرة الناصر ٣٣-٣٧ وانظر ابن أبي الرجال، مطلع البدور ٤: ٢٩٤صص-٢٩٥. تحت الطبع

٥ أحمد بن محمد الشامي،تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي، السفر الأول. بيروت: دار النفائس، الطبعة الأولى١٤٠٧/١٩٨٧ص. ٣٠٣-٣٠٤.

وتمكن من جذب "الظليمي" بقواته إليه، وسقوط "حجة" بيد "الإسماعيلية"- ضربات قاصمة لظهر "الإباضية"، وإن كانت موجعة، لكنها ليست حاسمة، لأن حضورهم بقي قويا في بعض مناطق الشمال بعد وفاة "الناصر". ويذكر "مسلّم اللحجي" الذي توفى في النصف الثاني من القرن السادس الهجري[١] أن ("أهل جبل شظب" وما يليه شمالا وجنوبا ومغربا إلى ناحية "حجة" و"الشرف" كانوا على رأي "الإباضية"، بعد مضي أيام الناصر لدين الله أحمد بن يحي عليهما السلام والصالحين من بعده ويقولون بالجبر وخلق أفعال العباد وينصبون الحرب لآل رسول الله صلى الله عليه، ويتبرأون من علي عليه السلام ويفرطون في بغضه)[٢]

*

بعد وفاة "الناصر" والصالحين من بعده- على حد تعبير "مسلّم اللحجي" نجد أن "الإباضية" قد انتشرف على منطقة واسعة، وأنها بتواجدها في "منطقة خيوان" قد اطلت على خط "صنعاء" –"صعدة". فالجغرافي "إبراهيم بن محمد الإصطخري" المتوفى ٣٤١/٩٥٢ أو ٣٤٦/٩٥٧ قد أكد أن "بلاد الإباضية" –عندما زار اليمن- كانت (بقرب "خيوان"، وهي أعمر بلاد تلك النواحي مخاليف ومزارع وأغزرها مياها)[٣]، وقال ابن حوقل -الذي توفى بعد

---

[١] للبروفسور مودلينغ رأي في ذلك. انظر الحاشية ٥٣ من مقاله الأصول اليمنية لمصطلح الهجرة تحت الترجمة

[٢] مسلم،سيرة الناصر، ص ٩. وهذا القول من عقائدهم وإن كان من مصدر خصم يوشع في الاعتبار عند دراسة معتقدهم.

[٣] إبراهيم بن محمد الإصطخري،مسالك الممالك، بيروت: طبعة صادر مصورة من طبعة ليدن عام ١٩٣٧،ص، ٢٥

٩٧٨-٧٧/٣٦٧ على ما يذهب إليه الزركلي ومن تابعه[١]- (وباليمن أيضا من الخوارج طائفة بقرب "همدان" و "خولان") بدون أن يذكر أي "الخوارج" كانوا، وبدون أن يحدد منطقة بعينها، كما أن تعريف "همدان" بالذات في تلك الفترة يصعب تعريفها لأنها تشمل منطقة واسعة. ولكن لأنه ينقل مباشرة من "الإصطخري" دائما فربما كان يشير إلى "خيوان"[٢] أما المصادر اليمنية المتاحة فلم تذكر عن هذه المنطقة شيئا. والظاهر أن انتشارها إلى "خيوان" كان بعد وفاة "الناصر"، وقد تقدم لنا أن الرئيس "الإباضي "الظلمي" قد وصل إلى "خيوان" لمقابلة "الناصر"، ولم تكن بعد قد عمرت بـ "الإباضية". على أن منطقة خيوان يصعب تحديدها الآن، ولا نعرف بالتحديد إمتداداتها وحدودها، لكن يمكن القول أن المسافات ليست

---

[١] الزركلي، الأعلام-قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت: ط الثانية ، ج٦ص،٣٤٤. وتابعه ملخصه بسام عبد الوهاب الجابي في معجم الأعلام- معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستشرقين،قبرص:الجفان والجابي، الطبعة الأولى١٤٠٧/١٩٨٧،ص،٧٠٣. وكذلك عند د عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، اليمن في عيون الرحالة، بيروت-دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى١٤١٣/١٩٩٣، ص،٨٥.).

[٢] أبو القاسم بن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت: مكتبة الحياة ١٩٧٩، ص/ ٤٤ على أن تاريخ وفاة ابن حوقل مشكوك فيها، ولعله توفي بعد ذلك بكثير، لأنني وجدت في كتابه صورة الأرض ما يثبت غير ذلك إذ جاء في الكتاب يقول: (قال كاتب هذه الأحرف: أن المستولي على هذه البلاد[حضرموت] لما دخلتها في سنة ٥٤٠/ .. أحمد بن منجريه، وكان دار ملكه بمرباط وهي مدينة صغيرة على شاطئ اليمن، وعلى مسافة يوم ونصف منها مدينة ظفار وهي أيضا له) وقد كتبها الناشر بخط أصغر، لكنه لم يشر إلى أنها حاشية ملحقة، أو إضافة من الناسخ فظهرت وكأنها من الأصل معززة بقوله: "قال كاتب الأحرف" ولم يقل، قال الناسخ. فإذا صح هذا فإن ابن حوقل مات بعد عام ٣٦٧/ ٩٧٧ بمدة طويلة.

متباعدة كثيرا، على أننا لم نجد حتى الآن اشارات كافيه إلى اي نوع من النشاط كان في هذه المنطقة.

كما يمكن أن تكون "منطقة عمران" حقلا صغيرا للإباضية ولو على شكل ضئيل، فهناك إشارة وردت في قصة إنضمام السلطان "حبشي بن عبد الباعث" إلى "المطرفية"-كما سيأتي، ولا ينقصها إلا أن تعزز بقول آخر. فـ "إبراهيم بن علي الضامي"- الذي كان اشهر من حاور إباضية الشمال وهزمهم- يقول: أن "حبشي بن عبد الباعث" لقيه(إلى كهف خارج عمران) إن كان المقصود بها عمران المعروفة، لأن هناك قرى كثيرة تحمل هذا الإسم- فهل كان سبب أخذه له إلى تلك المنطقة أنه كان بها أنصار لـ"حبشي"، أو أنها خالية منهم، فذهب إليها حتى لا يكشف أمره؟ ثم لماذا ذهبا إليه وهي على بعد من محل إقامتهما؟ لا نملك الآن أي رد على تلك الأسئلة. ولكنا نشير إلى صعوبة تحديد المناطق لأنها تتسع وتنكمش حسب الفترات الزمنية، وعلى قول المؤرخ هذا وذاك، بل لا سبيل إلى معرفتها في ظل هذا الوضع الثقافي الشحيح.

*

تتضح صورة "الإباضية" أكثر من خلال تصدي المطرفية الزيدية لمقارعتها، وقد احتفظ لنا عالمها ومؤرخها وأديبها الكبير- بل علامة ومؤخ واديب "اليمن"- "مسلم اللحجي" بكمية كبيرة من الحوار معها، ومن ذكر بعض رؤسائها وعلمائها. ولكن ضياع كتبهم قد أضاع وجهة نظرهم، وما بين أيدينا هو رؤية جانب الطرف الآخر، وهو طرف خصم، وهذا ولا شك يقلل من موضوعية النصوص اللحجية، بالرغم من الثقة الكبيرة في أمانة "مسلّم اللحجي" التاريخية التي لم يجرب عليه قط تشويه الوقائع ، ومع ذلك فإن الواجب يفرض علينا التنبيه إلى هذه النقطة.

أما علماء "الإختراع" فلم يظهر لهم أثر في الجدل الزيدي- الإباضي- فيما بين أيدينا من المصادر المتاحة- باستثناء حوار "علي بن شهر" –مؤسس المخترعة- مع "عبد الله بن موسى" الإباضي، كما لم نعثر للامام المنصور "القاسم بن علي العياني" ولا إبنه الحسين بن القاسم" وهما من الأئمة المؤلفين أي حوار مع الإباضية في كتبهم، فيما نعرفه حتى الآن.

وحتى الآن يمكن القول -من خلال ما تقدمه النصوص- أن العلامة المطرفي "عمرو القاضي" كان من آوائل من تصدى لهم بعد فترة "الناصر"، وهم في أوج قوتهم. وكان "عمرو القاضي" هذا من "ببيت أكلب" من "بلد بني قهم بن جابر بن عبيد الله بن قادم" وقد أثنى عليه العلامة الكبير "إبراهيم بن علي الضامي" في علمه ودينه، وقال عنه أنه كان (ممتحنا بجهاد عدوهم ومخالفهم بقلبه ولسانه، معملا في نصرة الحق وخذلان الباطل فكره، وكان من يجاوره من المخالفين "إباضية" من الخوارج ويشتد نصبهم بعداوة "لآل رسول الله صلى الله عليه")[١]

ويقابله في هذا الوقت زعيم الإباضية "موسى بن عيسى بن عبد الرحيم بن موسى بن هارون" –ربما كان حفيد العلامة "موسى بن هارون العوقي" الذي جادله "المرتضى"- وكان قاضي "عوق" من أعمال "شظب" وهو (يومئذ أوحد الإباضية علماً ورأيا وتدبيراً ورئيس الجابريين؟ لأنه وسيط النسب في "بني هلاّن بن عوق بن جابر") ٣ وهو كما يظهر سليل زعامة وعلم. ومن

---

[١] مسلم ، طبقات مسلم، مخطوط ٤: ٢٨

[٢] الجابريون لهم في تاريخ الإسماعيلية شأن، ولا نعرف هل تحولوا إلى الإباصية أم كانوا موزعين بين إسماعيلية وإباضية، وانظر تاريخهم في سيرة الناصر

[٣] مسلم ، طبقات مسلم، مخطوط ٤: ٢٨

موقعه هذا والتفاف "الإباضية" حوله، بدأ يخطط للدعوة إلى نفسه، وطلب تقلد الإمامة (على مذهب "الخوارج" في صحة الإمامة في جميع الناس) ١

استجاب "الإباضيون" لهذه الدعوة، ولكن "عمرو القاضي" انزعج إيما إنزعاج وعمل جاهدا لتخريب هذا المسعى (وكان يرجو أن يحمل "مذهب الإباضية"، ويعلو "مذهب الزيدية")٢ وعمل هو وآخر يدعى "حبشي" –ربما كان هو السلطان السابق ذكره أو منهم- خطة لتفشيل هذه الدعوة، وكان "حبشي" في منعة من قومه وماله. واجتمعت "الإباضية" في "الكلابح" وهي (يومئذ سوق البلاد العظمى ومجمع القبائل من الجابريين و القدميين، .. فلما دارت حلقة القوم في صحراء الوادي وابتدأ في الكلام أخذ [حبشي] حجراً فرمى به بينهم، وكانت بين القبائل العداوات الشديدة، والذحول العظيمة، والتخاوف من قبل ذلك، فاقتتل القوم إلى الليل ومالت "الاقهوم"٣ ناحية، و "قدم" ناحية، و "الشظبيون" ناحية، وافترق القبائل على حرب ..لم يكن لهم بعده اجتماع إلى اليوم لمثل ما كانوا راموا، وبطلت دعوة "موسى بن عيسى")٤.

نتوقف الآن عند هذا الخبر لنستطلعه خُبرا، فالقول بأنه طلب تقلد الإمامة (على "مذهب الخوارج" في صحة الإمامة في جميع الناس)-كما يقول

---

١ مسلم ، ، طبقات مسلم، مخطوط ٤: ٢٨. وهذه الفقرة اضيفت في العرض ولم يشر إليها كتعليق فترجح أنها من الأصل.

٢ مسلم ، ، طبقات مسلم، مخطوط ٤: ٢٨

٣ الأقهوم: لعلها الأكهوم عزلة من ناحية جبل عيال يزيد واعمال عمران (معجم المدن :الأكهوم ط ١٠) وبيت الأقهومي بلدة في منطقة بني المهدي من جبل كحلان الشرف(معجم المدن :الأقهومي ط ١٠) والشظبية نسبة إلى شظب وقد تقدم.

٤ أنظر القصة كاملة في ، طبقات مسلم ٤: ٢٨.-٢٩

"مسلم اللحجي"- صحيح، لكن الإمامة عند "الإباضية" محصورة في أتباعها، فنحن إن لم نقبل هذا الاستنتاج بين ثلاثة أمور: فإما أن نسقط من حسابنا ماينسب إلى "الإباضية" من أنها لا تسمي إمامها أميرا للمؤمنين، أو أن "الإباضية" لم تقل به، وأنه دس عليها، وإما أنه أنه دعا إلى الإمامة على "الإباضية" فقط، بدون الإمامة العامة. أي الناس جميعا، كما عمل "طالب الحق".

*

بعد هذا الاستنتاج نتابع حديث التاريخ فنقول أنه بعد وفاة "موسى بن عيسى" السابق خلفه إبنه "عبد الله بن موسى" على الإباضية فكان قاضيها ومرجعها. وتسجل أخباره مناظرة له مع العلامة "علي بن شهر" صاحب القول بالاختراع، انعقدت بـ "بلد الأقهوم" ودارت حول اللوح المحفوظ، وقد حاول "عمرو القاضي" أن يعين "علي بن شهر" حتى لا يُغلب فتنتصر عليه "الإباضية" لكنه لم يطاوعه فغُلب. قال مسلم: (كان "عمرو" يدور بـ "علي بن شهر" ويحاوله أن يقبل مشورته في كلامه فلا يفعل لجهل كان فيه، لم يجبه إلى ما أراد فتركه، فرجعت الإباضية وهي تدعي قطع "علي بن شهر" والفلج عليه).[١]

ويؤكد "ابن أبي الرجال" قصة المناظرة هذه، لكنه يتغاضى عن محاولة "عمرو القاضي" الانتصار لـ "علي بن شهر"، كما يتحاشى ذكر إنقطاع رئيس الإختراع، واكتفى بالقول: (وحصل بينه وبين "عبد الله بن موسى بن

[١] مسلم ، ، طبقات مسلم،٤: ٢٩

عيسى..بن هارون" قاضي الإباضية مناظرة، وكان اجتماعهما في بيت أكلب وحضر المناظرة "عمرو القاضي" من المطرفية)١

وربما كانت هزيمة "علي بن شهر" رئيس "الإخراعية" أمام الإباضية سببا في الإنزواء الاختراعي عن مناظرات "الإباضية" والتصدي لهم، إذ لم نعد نسمع لهم بعد ذلك صوتا في أي حوار، بينما تضج صفحات هذه الفترة بأصوات "المطرفية" وأصداء "الإباضية".

*

في عام ٤٣٩/٤٧-١٠٤٨ إنفجر حدث ضخم أعاد رسم ملامح اليمن كلها على نحو واضح. ويعتبر بحق التحول الثاني في تاريخها الإسلامي فالأول كان ظهور الهادي "يحي بن الحسين"، والثاني ظهور "الإسماعيلية الفاطمية"، وكلا الظهورين إبتدأت بهما دورة تاريخية جديدة، وإذ كانت الدورة "الهادوية" أكثر تاثيرا وابقى زمنا، كانت الدورة "الإسماعيلية" أكثر وهجا واسرع انطفاء.

في هذا العام أعلن "علي بن محمد الصليحي" من على ذروة "جبل مسار" الشامخ قيام الدولة الإسماعيلية الفاطمية مفتتحا دورة زمنية ما لبثت أن تجاوبت لها جبال اليمن وسهوله وتشكلت على صورتها الإسماعيلية.

عرف عن هذه الدولة تسامحها الديني في معظم تاريخها، مع وجود فترات كانت تحاول قهر خصومها الفكريين بالقوة، إلا أن الغالب عليها التسامح المذهبي. الأمر الثاني هو أنها تعاملت مع خصومها تعاملا مرنا فكانت تكتفي بالظاهر من الطاعة، والولاء أي بالإعتراف بها سياسيا، غير مهتمة بالباطن منه، وهنا تطرح مفارقة لطيفة نفسها إذ تمكنت السياسة من

---

١ إبن أبي الرجال،مطلع البدور،٣: ١٣٥-١٣٦

التقريب بين أهل الباطن وبين أهل الظاهر؛ فأصبح شرط الباطن غير وارد في هذ الأمور، فكانوا وهم أهل الباطن، يقبلون ولاء أهل الظاهر، ويتعاملون معهم، وكان أهل الظاهر يبذلون الطاعة لأهل الباطن. كان "الصليحيون" يقتنعون من خصومهم بالولاء السياسي فيوظفونهم في دولتهم، ويستعينون بهم في إرساء نظامهم، ويمنحونهم العطايا، ويتركون لهم حرية معتقدهم. وعلى نحو ما حفظ الصليحيون حقوق الأقليات ما دامت تمنحهم الولاء وهي خطوة تحسب لهم، ولعل هذا السبب -من جملة اسباب- كان وراء إزدهار نبتٍ في أرضيةٍ معادية. لكن "المطرفية" زمعظم الهادوية لم تقبل بالاعاون معهه، وظلت تقارعهم بالحجة والمنطق، كما أنها وقفت منهم سلبا ونأت بنفسها عنهم ما وسعها الجهدـ في حين تعاونت " الإباضية" وإن على دخن بعد تجربة مريرة. ولعل السبب وراء صمود المطرفيين ونعاون الإباضيين أن رجال المطرفية رجال علم لايطلبون إمرة ولا يسعون إلى حكم فارتفعت بهم أفكارهم عن مستوى اللعب السياسية، بينما كان الإباضيون يطمحون إلى الحكم ومن ثم لعبوا لعبته، إلى جانب أنهم كانوا يؤمنون بالتقية فدفعت بهم هذه الأسباب إلى التعاون مع أشد خصومهم عداوة ونكرا.

بينما كان الملك "علي بن محمد" الصليحي لايزال في "جبل مسار"، وقبل أن يطوي "اليمن" في يديه كطي السجل جهر بأراءه المتطرفة في الشيخين الجليلين، "أبي بكر" و"عمر"، ولم يبال بردود الفعل خاصة في المنطقة الجنوبية الشافعية، ولا في الشمالية "الإباضية"، وهو بعد لم يملك "صنعاء" ولم يسيطرعلى "تهامة"، واستهل معركته الفكرية بحوار ساخن مع قاضي "الإباضية" "الشقارى" وهو (رجل من أئمتهم وعلمائهم من "أهل حجة" نسبه في "بني زيد بن أعشب" وكان يهجو "الصليحي" وهو بـ "مسار" ويهجوه "الصليحي" وبينهما نقائض مروية عند أقوام من الناس فيها ما هو ضعيف

الطبقة ردئ اللغة، وفيها الجيد) ١ ولكن مع الأسف لم يرو لنا "مسلم اللحجي" منها سوى قول الملك في "أبي بكر" و "عمر" وهو يرد على "الشقاري":

(وإن قلتم كانا ضجيعي محمد فقبراهما بالنار يضطرمان

كذا اللات والعزى على البيت علقا وليسا بقرب البيت يكتنفان)٢

وكان "عامر بن عبدالله الظليمي" من أهل "جبل ميتك"، قد تنقل في المذاهب الثلاثة: "الإباضية" فـ "الزيدية" واستقر به المطاف عند "الاسماعيلية" إلى أن قتل، وكان من أصحاب الزعيم الصليحي "سليمان بن عبدالله الزواحي" وأقران "على بن محمد الصليحي" وكان "أهل جبل ميتك" "إباضية" يترقبون فرصة سانحة للإنقضاص على "عامرالظليمي"، فلما هبط الملك إلى "تهامة" عام٣٤٤٤/٥٢-١٠٥٣وكانت "وقعة الزرايب" من "بيش" انتهى الخبر إلى "ميتك" بقتل "الصليحي" فوثبوا على "عامر الظليمي" فقتلوه، ثم مالبث الخبر اليقين أن جاءهم بعكس ما توهموه، فخافوا على انفسهم وصدق خوفهم فقد اجتاحهم بعد رجوعه إلى "صنعاء" في ٢ القعدة عام٤٤٤٧/٢٢ يناير ١٠٥٦م فقتل "أهل المغرب" من "ميتك" وغيرها ودوخ البلاد هناك، وهرب "الشقاري" إلى "جبال خولان قضاعة" ثم رجع إلى "حجة" فظُفر به فقتل.

---

١ مسلم ، ، طبقات مسلم، ٤: ٣٦

٢ مسلم ، ، طبقات مسلم،٤: ٣٦

٣ مفرح بن أحمد الربعي، سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين؛ تحقيق ودراسة رشوان السيد وعبد الغني محمود عبد العاطي. بيروت: دار المنتخب العربي الطبعة الأولى١٤١٣/١٩٩٣. ص.٧٥-٧٦.

٤ الربعي، سيرة الأميرين . ص٧٥-٧٦

خلفه كما يبدو "أبو الهدام بن إسحاق" فتولى قضاء "الإباضية" وكان "يوسف بن حيدان" وهو مثله من "أهل الشرف"، من ناحية "بني هلاّن" من البارزين في هذه الفترة[١]. وكان "أبو الهدام" (قاضي "الإباضية" هناك، وكان من أقران "الشقاري" ومعظماً فيهم) [٢] فلما ملك "الصليحي" المغرب، دخل "أبو الهدام" في "طاعته، وتولى العمل له في بلده. وقال مسلم: أن هذا الموقف كان ثلمة في "الإباضية" إلى عهده[٣].

هنا نتوقف لنتطلب تفسيرا لموقف واحد إختلف في التعامل معه إباضيان، هما "الشقاري" و"أبو الهدام"؛ فأما "الشقاري" كما رأينا فقد فضل عدم الإستسلام والخضوع لقوة الخصم فقاتل حتى قتل، وأما "أبو الهدام" فقد قبل بالتعاون مع "الصليحيين" وعمل لهم. فهل استخدم التقية التي تجيزها "الإباضية"؟ أم أن الرجل ذا طبيعة انتهازية؟ كثيرا ما يظهر هذا المثال في كثير من المذاهب والأحوال فلن يستدل به على موقف المذهب نفسه، وإنما هو عمل فردي خاص على كل حال.

*

نعود إلى حديث التاريخ، فقد تنفست "الإباضية" الصعداء عندما قتل الملك الكبير "علي بن محمد الصليحي" في المهجم في القعدة من عام ٤٥٩/سبتمبر١٠٦٧ كما انزاح عن كاهل الأشراف العيانيين هم ثقيل. وبغياب الملك شكل "العيانيون" قوة متحدية وخطيرة في مواجهة الملك "المكرم" ودارت بينهما حروب ضارية. وفي هذا الجو الذي استعر أواره بين

---

[١] انظر تفاصيل ما ذكر في طبقات مسلم،ج٤ ،صص٣٦- ٣٧

[٢] مسلم، ، طبقات مسلم،٤،ص٣٦

[٣] (وهذا مما أخبرني به الشيوخ من أدركت من بلدنا ممن أدرك ذلك وعرفه) (، طبقات مسلم،٤: ٣٦-٣٧)

"الصليحيين" و"العيانيين" ربما أدركت "الإباضية" أن الفرصة سانحة لأن يعلن زعيمها "الحطيط بن عبد المجيد " في عام ٤٦٩/ ٧٦-١٠٧٧ إمامته، فأجابه "أهل الشرف" ومن يليهم، لكن الأمير "ذو الشرفين"- من ألمع زعماء الهاشميين أثناء تلك الفترة- ومعه الأشراف والسلاطين المحليين قاوموا تلك الدعوة بالسلاح، وفي "المحطور" دارت المعركة بين الجانبين (فأصدقهم القتال وهزم الخارجي، واستولى عسكر "ذي الشرفين" على الشرف قتلا ونهبا)[١] ويبدو ان الضربة كانت ماحقة حتى أن المؤرخ قال: (وانقرضت "الإباضية" من الشرف)[٢] ويبدو أن المؤرخ اراد بداية النهاية لهذه الفرقة التي تلاشت بعدها، وكان التلاشي تدريجيا وإن بسرعة كبيرة كما يظهر.

لكن الأغرب من هذه النهاية، أن تكون بداية عند صديقنا القاضي "إسماعيل الأكوع" الذي جعل من ثورة "الحطيط" بداية ظهور "الإباضية" في اليمن في القرن الخامس. قال: (وظهر في اليمن الإباضية على يد "الحطيط بن عبد المجيد" الأباضي من أعيان المائة الخامسة، حينما دعا إلى نفسه بالإمامة من "حصن المِحَطْوَر" واستجاب له أهل الشرف وغيره، كما انتشر مذهبه أيضا في بلاد السودة)[٣]

لكن ما ذهب إليه صديقنا "إسماعيل الأكوع" هو راي المستعجل، ومع المستعجل الزلل، وكثيرا ما يستعجل صاحبنا هذا، وكثيرا ما يغامر، ورأيه هذا واحد من مغامرات تاريخية كثيرة؛ إذ أنه من المؤكد أن ثورة

---

[١] إبن المؤيد، غاية الأماني،١: ٢٦٩

[٢] زبارة، خلاصة المتون، ٢، ١: ١٥٩

[٣] إسماعيل بن علي الأكوع ،المدخل إلى معرفة هجر العلم ومعاقله في اليمن.دمشق:دار الفكر-دمشق: دار الفكر الجديد بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥/١٩٩ ص. ١٥١.

"الحطيط" لم تكن بداية ظهورالإباضية في أعالي الشمال، ولا في غيره، وأن البداية –كما عرفنا- كانت سابقة لهذه الفترة، إلا أن صديقنا " إسماعيل الأكوع" جعل تاريخ ولادتها هو عام شيخوختها تقريبا. وأعتقد أن سبب إستعجاله وأحكامة المبتسرة، أنه لا يفصل بين ما يهواه، وبين ما هو واقع، بين ما يرغب فيه وبين ما حدث. ويبدو لي أنه يتسرع في طاعة هواه فينزلق في العثرات، ولو أنه يلجم اندفاعه بلجام البحث العلمي، لرأى الصورة التاريخية على حقيقتها، ولما ظل ينطلق وراء كل سراب يحسبه ماء، وفي التأني السلامة وفي العجلة الندامة.

ربما كان هناك سبب أخر في تعليل هذه الحالة الإسماعيلية الأكوعية، وهو ما يدل عليه تمسكه بلقب القاضي ليضعه قبل إسمه في كل كتاب. وهو ليس بقاض شرعي، لكن التمسك هذا هو عنده نوع من الصراع المعروف بين "السيد" و "القاضي"، فهو يكشف عن حالة نفسية معينة. ثم أن إصراره على لقب القاضي يضفي على ما يكتب شعورا بالقضاء الشرعي، وأنه لم يصدر حكمه إلا بعد أن سمع كل الدعاوى والبينات، وأنها موسومة بشرعية قضوية لاتنقض، ومن هنا يعتقد في نفسه أن الناس وقد بهرتهم كلمة القاضي وهي تقتعد أعلى مكان في غلاف الكتاب، سيتقبلون أحكامه وعليها دمغةُ محكمةٍ، ونحن نعرف وهو يعرف أنه ليس قاضيا شرعيا، وأنه لم يكن في يوم من الأيام قاضيا، وإنما هو أديب باحث وسياسي ومذهبي، وليس إصراره على وضع القاضي على رأس كتبه إلإ ليعطي الآخرين وهماً مبجلا، فيتوهم من لايعرفه أنه من قضاة الشرع، وأن أحكامه –من ثم تأتي نتيجة لاستماع كل الدعاوى والبينات، فيكون حكمه حكما عليه جلال القضاء. لكن قضوية صديقنا هي قضوية فئوية، وليست رتبة علمية أو شرعية. وفي إصراره عليها ما يجعلنا نخاف على صديقنا من أن يصدق ما يردده من كلمة القاضي، فيعتبر نفسه قاضيا، ويصدق أنه من قضاة الشرع؛

فيصدر الأحكام على هذا الأساس، وبدون بينات ولا دعاوى، فتكون القاضية عليه وعلى المتلقي وعلى أبحاثه لا سمح الله، والمرجو منه أن يترك القضاء للقضاة الأعلام، ويعود إلى فلكه التاريخي مرافعا لا قاضيا.

*

بعد تسجيل هذه الملاحظة نعود إلى حديث التاريخ:

ما فشل فيه "علي بن شهر"-زعيم الاختراعيين- في حواره مع "الإباضية"، وما فشلت فيه قوة "ذوالشرفين" العسكرية، نجح العلامة المطرفي "إبراهيم بن علي الضامي"(ولد٤٢٣/١٠٣٢، ت ٥١٦/١١٢٢) الذي عاش نحو اثنتين وتسعين سنة ولم يمت إلا وقد كف بصره، وكان قد نجح بسبب حسن حواره، وقوة حجته، وغلبة منطقه، وانصرافه إلة الدراسة والتدريس، وبهذه العدة تمكن من جذب أكثر "أهل شظب" من "الإباضية" إلى "الزيدية المطرفية"[١] ولم يأت عام ٤٦٣/٧٠-١٠٧١ إلا وقد مهد الطريق بخروج أعداد كثيرة من "الأباضية" لانتصار "ذو الشرفين" على "الإسماعيلية" و"الإباضية" معا، كما سيأتي.

تلقى "إبراهيم الضامي" علومه على يد شيخ الزيدية في عصره وناحيته "عامر بن صعتر بن عامر بن تميم العذري" ومحضه أستاذه كل محبة[٢] وعندما بلغ مكانة رفيعة من العلوم انتقل إلى "شظب" لا بتخطيط منه ولا تصميم، ولكن لظروف إقتصادية دفعته إليها دفعا[٣].

---

[١] مسلم، ، طبقات مسلم،٤ : ١٧٢

[٢] مسلم، ، طبقات مسلم،٤: ١٧٤ وانظر ص ١٧٥

[٣] أنظر أسباب انتقاله وما لاقاه في طبقات مسلم، ٤: ١٩٢-١٩٣

كانت "شظب الإباضية" في تلك الفترة كما يقول "مسلّم" (بخلاف سائر بلاد اليمن، لأنها تجمع من[١] افترق في غيرها من النقائض، وذلك أن أهلها أبصر خلق الله بكسب دنيا، وخصومة فيها، ومكايدة عدو عليها، ولطف حيلة في استخراج شيء منها، وشدة حرص، وقوة منع لما يصيبون منها، وإفراط إيثار لها على الدين)[٢]. ثم يقول (ربما دخل بلدهم الغريب من أهل العلم والدين فلا يكون شيء أحب إليه من المبادرة بالخروج عنها، والهرب منها، وكانت فيها قرى وأسواق، الغالب على أهلها التظاهر بالفسق والفجور وشرب الخمور والزمر والغنى من فوق سطوح الدور ورؤوس الجبال بأغاني لهم هي أبعد شيء ما يستحسنه اللاهون والملهون في الآفاق قد اختصوا بها لتكون كالشهادة على منافرة طباعهم لطباع الناس، وباقي ذلك فيها ظاهر إلى الآن، ومنازلها المتجنبة عن الأسواق الغالب على أهلها الجفا، والعامية الظاهرة، والجهل المظلم، ومضادة القراءة والقراء والديانة والتدين حسب ما تقدم ذكره قبل هذا من الكلام، حتى كانت الأحكام بها من حكامها لا بتعلمٍ ولا ..إطالة تفقهٍ وبحث، بل يأتون إلى أنفار قد قدموهم لذلك ورضيوا بأحكامهم فيقضون فيهم بما لا علم لهم به، ولا علم للمقضي عليه، فإذا اجتمع منهم رجلان أو ثلاثة فابتدعوا رأيا يقضون به لم يتعرض سائرهم لنقضه، ثم لو نقض ناقض حكمه لم ينقضه بآية ولا رواية، إنما ينقضه برأي آخر يبتدع كابتداعه)[٣]

هذه الصورة المزرية ينبغي أن تؤخذ على عمومها لا على خصوصها، أي ليس عن "الإباضية" فالمعروف عنهم المغالاة في التدين لاالمغالاة في ملاهي

---

[١] قرأها استاذنا الشامي: من. انظر تاريخ اليمن الفكري ج ٢،ص ٣٠٥ (يراجع النص)

[٢] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٨٠.

[٣] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٨٢

الدنيا، إلا إذا كان إباضية الشمال من طراز آخر. وهو مالم يحصل عندنا استيثاق منه، وبالرغم من أن "إبراهيم الضامي" ذكر أنه سمع بعض متكلمي "الإباضية" في "شظب" (يحتج على خصم له بآية من كتاب الله وتممها بألفاظ بلدية من كلامهم المولد المستعمل بينهم)[١] فهذا دليل علة شيوع الجهل فيهم وليس على الخلاعة، وإذن فالصورة التي رسمها لأهل شظب –كما نعتقد- لم تكن تعكس مجتمع الإباضية بل مجتمع شظب المختلط الألوان. لكن الذي لا نستطيع أن نتشكك فيه أن (الحكم والإبرام والنقض بها فإنما هو بأيدي "الأباضية" ومن يصلي في مساجدها ممن يصلي بالجماعة هم، وشهود حكامها منهم) [٢]

على أن الصورة التي نقلها عن جهل بعض "الإباضية" إنما تعكس –من بعض أوجهها- مقارنة نفسية غير متكافئة قارن فيها "إبراهيم" الوضع المطرفي العام، بالوضع الإباضي العام، ومن الثابت أن "المجتمع المطرفي" يكاد يخلو من الجهل، وقد يكون هو المجتمع الوحيد في "اليمن" الذي سادت فيه الثقافة على جميع أفراده، وتناغمت فيه ثقافة النخبة مع ثقافة العامة بحيث تكاد تذوب بين اتباعه الفوارق العلمية، وهذا ما لم يحصل عليه "المجتمع الإباضي" كما يبدو، ولا المجتمع الهادوي كما هو واضح، إذ ان الفوارق لديهما بين النخبة والعامة فوارق واضحة للعيان. وكان مسلم- كما يغلب على الظن- بتصويره شظب على تلك الحالة، إنما كان يوازن من حيث لايحس بين قومه وبين قومهم، والموازنة بين شيوع ثقافة الجماعتين في هذه الناحية غير واردة، لأن شيوع الثقافة المطرفية بكا تأكيد كانت أكثرسعة وأرحب مساحة.

---

[١] مسلم ، طبقات مسلم،٤: ١٨١

[٢] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٨٢

وباختصار كان الوضع في "شظب" كما صوره "مسلّم" يتمحور بين (داع إلى رأي "الحشوية" وآخر إلى دين "الإباضية" وثالث إلى مقالة "الباطنية" ورابع إلى شواذ أغلاط[أخلاط] طوائف من الزيدية[المخترعة])[١] وكانت السيطرة المطلقة فيها هي "للإباضية".

في هذا المناخ قدم الشيخ "ابراهيم الضامي" إلى "شظب"، وكان قدومه قبل طلوع الأشراف مع الأمير "محمد بن جعفر بن القاسم" جبل شظب المرة الأولى كما قال مسلم [٢] أي عام ٤٦٣/ ٧٠-١٠٧١ وكانت شظب أنذاك تحت إمرة الصليحيين، على أني لم أتمكن من معرفة العام الذي استولوا فيه على شظب لكنه كان قبل عام ٤٥٩/٧٦- ١٠٦٧ أي قبل مقتل الملك "علي بن محمد" في "المهجم" لأن "مسلّم" يروي أن رئيس "الإباضية" "عبدالله بن موسى بن عيسى بن عبد الرحيم وموسى بن هارون العوقي" قد عين عاملا في "شظب"، من قبل الملك "علي بن محمد الصليحي" (كان حين ولاه الصليحي البلاد قد دفع إليه كراسة العهد وقال له خذ هذا العهد على من أَحَبَّ الدخول معنا، وأحكم بمذهبنا، وصلي بالجماعة، أخبرني بذلك أخي جعفر بن محمد اللحجي عن القاضي أحمد بن عبدالله بن موسى بن عيسى وهو ابنه، قال كان أبي قد أمره الصليحي بذلك، فلما أمره بذلك لم يتظاهر به تظاهراً عاماً فلم يرفضه .. فبقيت الإباضية على طاعته)[٣]. بل ربما خضعت له شظب في عام ٤٤٨/١٠٥٦ ذلك أن الملك علي بن محمد بسط سلطانه على همدان قي "وقعة حاز" التي كانت آخر وقعة (بين "الصليحي" وهمدان، وفيها

---

[١] مسلم ،طبقات مسلم،٤: ١٨٥-١٨٦

[٢] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩١

[٣] مسلم، طبقات مسلم، ٤: ١٩٩

قتل آخر من بقي من فرسانهم ورجالهم المنظور إليهم)١ فلم تقم لهمدان بعدها قائمة، وبعد وقعة هرابة في نفس العام، وأشر الشريف الفاضل العياني حيث (طفت جمرة الحروب عنه، ولم يبق عليه معترض ففعل ما شاء) ٢

مهما يكن فإن "الإباضية" قد استفادت إقتصاديا من هذا التعيين، وهو أسلوب يرينا نجاح طريقة "الصليحين" في التعاون مع "الإباضية" وغيرهم وربطهم بالمصالح المالية وأثره فيهم، فكانوا يستقطبون منهم الولاء السياسي، ولا يطلبون منهم عقيدتهم في مقابل ذلك. واستفاد الخصمان معا من ذلك التعاون: ضمن الصليحيون الإستقرار في تلك المنطقة، وتطبيق الأحكام الفاطمية، وضمن الإباضيون معتقدهم، وشيئا غير يسير من المال. ذلك أن دخل مدينة "باري" قد وضع تحت إشراف عاملهم الإباضي، وكانت باري (مدينة البلاد، وكان بها تجار الناس وأغنيائهم، وتُحمل إليها التجارات العظيمة والصنائع الجمة، فكان يأتيها في كل خميس- وكان سوقها العامة يقوم يوم الخميس- فينظر في ما يدخل على جرايه صاحب البلد من الصليحيين من جباياتها، ويحصل من الرسوم والوصائف على أهلها، ومن يفد بعملٍ إليها من أهل الأموال لهم، فيقبضه ويروح به إلى موضعه)٣

وإلى جانب هذا الدخل العام كان رئيس الإباضية يتلقى المال من أتباعه، (وكانت قد عوّدَته في وقت حاصد الزروع رِفداً تأتيه به إلى منزله من

---

[1] مسلم، طبقات مسلم،٤: ١٩

[2] مسلم، طبقات مسلم،٤: ١٩

[3] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٠

ذرة وبر وغير ذلك من الحول إلى الحول فكانت على ذلك وهي على هذه السنة تعقده إلى اليوم ولغيرهم من رؤساء البلاد) ١

ويبدو أن الصليحيين قد اتبعوا تلك الطريقة تحت معرفتهم بشدة ولاء تلك القبائل لزعيمهم الإباضي ففضلوا طريقة ما يسمى بالقوة الناعمة على المواجهة. وقد كان الرجل من خلال ما وصفه يمثل مكانة روحية مرموقة، وكان متبوعا يروي عنه أتباعه (حكوماته[أحكامه] وتُكتَب أماليه وتُتَبع أثره) ٢. وهنا نواجه زعامة حقيقة عند أتباعه.

وكان وصول إبراهيم إلى شظب قبل ٧٠/٤٦٣-١٠٧١ بكل ترجيح لأن مسلم قال "أن إبراهيم الضامي" أخبره(بما يدل على أن قدومه البلد عندنا أول مرة كان قبل ذلك، لأن في أخباره ما يدل على أن طلوع الأشراف مع الأمير محمد بن جعفر بن القاسم جبل شظب المرة الأولى وقتلهم لأهل رأس الجبل كان وقد صار في البلد من يتشيع لأنهم إنما جذبوهم إلى جبلهم هذا طلباً لطرد عمال الصليحيين عنه وذلك أن في خبر إبراهيم- رحمه الله - وفيما سنورد منه: أن أول معرفته من أهل جبل شظب كان بالدرهمي بن جعفر - رحمه الله - وأنه ورد عليه وهو أباضي الاعتقاد فتاب على يديه. وأخبرني من أثق به أن الدرهمي حين سمع بقدوم الأمير محمد بن جعفر- وكان جيشه أتى البلد من طريق وادي الشاجة- أقبل حتى أشرف من حذاء الماجل المعروف بالجاهلي غربي قرية الظهراوين وهي من قرى الجبل، فلما رأى الراية فرح ومد يديه يقول مرحباً وأهلاً بك يا ابن رسول الله)٣ ولن

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٩.

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٠

٣ مسلم، طبقات مسلم، ٤ : ٩١-٩٢

يرحب إباضي بابن رسول الله، مالم يكن قد غير مذهبه. ويبدو من هذه الرواية أن المطرفية كانت تفضل الحسينية على سوءها ونكرها.

على أن "مسلم" ذكر مرة ثانية أن "ابراهيم" (لعله تحول للإقامة والمكث بالبلد مرة أخرى في سنة قرن عنتر والله أعلم)[١] وسنة "قرن عنتر" كانت عامي ٤٦٦-٤٦٧/١٠٧٣-١٠٧٤ وهي السنوات التي حاصر فيها الأشراف "بني الصليحي" في "صنعاء"[٢] فهذا يدل على أن "إبراهيم" قد دخل شظب مرتين.

مهما يكن من شيء فقد كانت "الإباضية" وقت مادخلها "إبراهيم" للمرة الأولى - كماراواه "مسلّم" وهو نفسه من "شظب"- تجاهر برفض التشيع و(التشيع بها منكر غريب) و كانوا يسبون "عليا"، وكانوايرفضون السماع لخطبه لأنه لا يحل لهم سماعها[٣] وكانوا يجلدون من صام يوم الشك (أدركتهم يجلدون من صام يوم الشك وأن لم يفطر إلا بعد رؤية الهلال من شوال) [٤] كما أن الأذان بحي على خير العمل (يحدث فيه النكيرة بحسب القدرة ومبلغ الطاقة من المُنكِر وضعف المنكَر عليه، فمن بالغٍ قدرته في ذلك إلى ضرب المؤذن، ومن عاجز عن ذلك قادر على الشتم والكلام القبيح، ومن غائب لذلك قائل بأنه بدعة وباطل محدث ونحو ذلك)[٥] وما اشبه ذلك من أقوال بغيضة في الإمام علي. فهذا معروف عنهم آنذاك، ولكن هل كانوا بالفعل يسبون "الحسن" و "الحسين" و "فاطمة" وولدهم - رضي الله عنهم –؟ أما "مسلّم" فلا يشك في ذلك ويقول (لقد كنت أسمع وأنا غلام من

---

[١] مسلم، طبقات مسلم، ٤: ١٩٢

[٢] الربعي، سيرة الأميرين، ٢٣٩. غاية الأماني، ١: ٢٦٦

[٣] مسلم، طبقات مسلم، ٤ : ١٨٣

[٤] مسلم، طبقات مسلم،٤: ١٨٤

[٥] مسلم، طبقات مسلم،٤: ١٨٤

يسبهم..مايجب به الحد عند الله، لايُكني ولا يتحاشى عن ذلك ولا يستحي ولا أقول أني سمعت ذلك من أحد من رعيتهم ومن يعتدونه من جهالهم و عوامهم، بل ممن يدعي العلم والفقه والديانة والفضل فيهم، ومن صار إليه في حياتي ولاية القضاء في بعض نواحيهم)[١]، وسمع بعضهم يسمي "جعفر الصادق" بجعفر الكاذب، وكانوايرفضون السماع لخطب أمير المؤمنين لأنه لا يحل لهم سماعها؟

وأما نحن فنخضعه للتشريح؛ فهذا التشدد والتطرف يناقض ماعرف عن الإباضية من إعتدال، بل أنه لم يسمع عنهم أمرا إدّا في "الحسن" و "الحسين" و "فاطمة" وولدهم وجعفر الصادق، وفي الوقت نفسه فلا مجال لرفض هذه الرواية عنهم بدعوى أنها من جهة خصم، لأن "مسلّم" من ناحية أخرى ينسب هذا القول إلى شيئ محسوس مسمّى (ثم وقفتُ بعد ذلك على كثير من كتبهم في الإمامة نحو كتاب "عبدالله بن يزيد البغدادي" في التحكيم وغيره فعلمت أن هذا من ذلك) ٣. ولكنا لم نطلع على هذا الكتاب. وعبد الله بن يزيد هذا ذكره ابن النديم في الفهرست وقال أنه(من أكابر الخوارج ومتكاميهم، وله من الكتب كتاب التوحيد كتاب الرد على المعتزلة طتاب الستطاعة طتاب الرد على الرافضة) ٤ وليس لدي كتاب عبد الله بن يزيد البغدادي لأعرف أي نوع من الإباضية هؤلاء ومن هنا يبدو

---

[١] مسلم : طبقات مسلم،٤: ١٨٢

[٢] مسلم، طبقات مسلم، ٤ : ١٨٣

[٣] مسلم، طبقات مسلم، ٤: ١٨٤.

[٤] ابن النديم، الفهرست، تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة الطبعة الثانية١٤١٧/١٩٩٧. ص،٢٢٧.

ضرورة البحث عن أي الفرق "الإباضية" هذه التي في أعالي شمال اليمن؛ لأن ماروي عنهم في هذا الشأن لايتفق مع ماروي عن اعتدال "الإباضية".

*

بعد حوار هذه النقطة نستأنف حديث التاريخ

نزل "إبراهيم الضامي" على "الدرهمي بن جعفر"، وينص مسلم على أن (أول معرفته من أهل جبل شظب كان "بالدرهمي بن جعفر"- رحمه الله - وأنه ورد عليه وهو إباضي الاعتقاد فتاب على يديه)[١] وكان وصول "إبراهيم" إلى المنطقة من أجل طلب المعيشة لا من أجل التبشير بمعتقده، فالدوافع الإقتصادية هي التي أملت عليه إتخاذ هذا الموقف؛ إذا كانت سنة مجدبة دفعته أن يذهب إلى "شظب" ليكون أجيرا عند إباضي يحرس عنبه، ويتقي بما يعتاش عليه صائلة الجدب. ولبث إبراهيم يكتم أمره. فهو يعيش بين قوتين لا يتفق معهما: الفاطمية الإسماعيلية و الإباضية التي هادنت الصليحيين وتعاملت معهم، ووَلِيت لهم، فكان عليه أن يواجه القوتين بدون قدرة عليها، فالتجاء إلى التكتم الشديد. قال "مسلم" عن "إبراهيم" (كنا نكتم التشيع فَكُتِم أمره، وكان أمر البلد يومئذ إلى الصليحيين فكان عاملهم عليه "عبدالله بن موسى بن عيسى بن هارون العوفي"، وكان رئيس أهل مخلاف البياض من القدميين والجابريين من قبل الدولة الصليحية ومن بعدها وقاضيهم جميعاً، فكان يتعصب للإباضية ولأهل الدعوة الصليحية فكان يخاف من حقيرٍ. قال: فلبثت أنا وهو لا يعلم كثيراً من الناس بما نحن عليه) [٢].

---

[١] مسلم، طبقات مسلم، ٤: ١٩١. وانظر قصته معه هناك.

[٢] مسلم ، طبقات مسلم،٤: ١٩٣-١٩٤

ثم بدأ "إبراهيم الضامي" في تنفيذ خطة رسمها، وكانت الخطة تقضي بخلق مناخ يجعل "الإباضية تستأنس به، وتطمئنهم أنه لا يشكل ما (يخاف منه ضرر) ١، فلما نجحت هذه الخطة أقدم على نفيذ المرحلة الثانية وهو أنه (تلطف لنفر من جيرانه وغيرهم حتى دخلوا في مذهبه، وقبلوا الحق عنه في ستر وكتمان، وكان قبولهم كل بحسب فهمه ومبلغ عمله، فلما أطال المكث هناك، وطال اختبارهم له في عقله وعلمه وورعه وطلبه لوجه الله تمكنت محبته من قلوبهم فأحبهم وعمل على الإقامة في البلد وأستوطنها داراً، فلم يزل آمنا حتى فشى أمره، واجترى أصحابه على إظهار رأيهم) ٢

لم يكشف لنا "مسلم اللحجي" عن طبيعة الحوار الفكري الذي كان "إبراهيم الضامي" يجذب به الإباضية إليه، فأفقدنا جانبا مفيدا، وإذ خسرنا هذا الجانب فقد اعتضنا عنه بمعرفة الطريقة التي كان يتم فيها-في مرحلة السرية والتكتم- استقطاب القوى الإباضية،:(كنت أفرح منهم بالاسم ولا أضايقهم في التحقيق، وأعتد إمساكهم عن سب آل رسول الله- صلى الله عليه- وعداوتهم وعداوة شيعتم شيعتهم فتحا ونصرا... على أن من يستجيب لي كان كثيراً منهم لا يقدر أن يكشف ذلك يحب أن يبقى على ما كان عليه من الظاهر عند "الإباضية"، ليسلم من شرهم جهراً وسراً، لأنهم كانوا يستحلون الغيلة للعدو والمضارة في الأحكام والشهادات، وقد عرف مذهب الخوارج والروافض من غلاة الشيعة في ذلك وما يستحلون من عداوة العدو، ونصرة الولي وتزكيته ونحو ذلك.. وكانوا أيضاً ... يردون

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٥

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٥

شهادته[اي شهادة خصمهم]، ويحرمونه نصيبه من حقوق الإسلام، ويستظهرون على ذلك بقضاتهم) ١.

وبهذه الطريقة الهادئة-كا يبدو- تمكن من جذب "رزام بن أحمد بن محمد بن عبد الصمد"- وهو(من أهل الظهراوين من رأس جبل شظب)؟ وبدأ يعلمه(ما يحتاج إليه من صلاته وطهارته وكان يقرأ له في المسجد الذي مكث فيه في كتب الأئمة عليهم السلام فعلمه ما يكفيه من أصول الدين في التوحيد وغيره) ٣ وكان رزام قد أصيب يوم طلع الأمير ذو الشرفين جبل شظب الطلعة الأولى عام ٧٠/٤٦٣- ١٠٧١ (بجراحات كثيرة شلت منها يداه ولم يمت وهو يومئذ لا يفقه شيئاً من الدين الذي صار إليه، وأخبرني إبراهيم - رحمه الله - أن توبته كانت متأخرة جداً عن توبة الدرهمي -رحمه الله- ، فدل هذا كله على أن إبراهيم قد قدم البلد وتشيع الدرهمي قبل هذا ونحوه ممن كان يكتم أمره في ذلك الزمان، ولعله تحول للإقامة والمكث بالبلد مرة أخرى في سنة قرن عنتر والله أعلم)٤.

وقام "رزام بن احمد" –بالتشاور مع "إبراهيم الضامي"- باقناع آخرين وإخراجهم من "الإباضية" فبدأ بـ (جده لأبيه "محمد بن عبد الصمد" .. وكان جليلاً من الرجال عند أهل بلده لوجوه أحدها انه كان من شيوخ الإباضية وأئمة الصلاة فيهم، وعلماء دينهم، والمقدم في كثير من أمورهم، والثاني أنه كان من أبناء شيوخهم ورؤسائهم، والثالث أنه كان من ذوي الأموال والسعة فيهم.. فكان رزام قد همه أمره وبعدت عليه الحيلة في إخراجه من مذهب

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٨-١٩٩

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٥

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٥-١٩٦

٤مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٢

الأباضية إلى مذهب الهادي إلى الحق-عليه السلام- وتوجهه إلى جهة السلامة وطريق النجاة، قال "إبراهيم": فشكا "رزام" إلي ذلك، وقال ما بقي علي إلا أن أهجره فإنه لم يجبني إلى شيء، ولا قبل عني ما أدله عليه من طريق النجاة؛ فقلت: "ليس هذا وجه الحيلة، ولا هذا هو الأولى لك فيه، لأنك تأتي معتذراً فيما كنت جبلت عليه- وكان "رزام" قد أوسع في الإساءة إلى جده، وأخذ جزيلا من ماله غصباً)١ ونصحه"إبراهيم" أن يذهب إليه، ويتلطف له، ويطلب منه أن يحلله منه؛ فإن هو فعل هذا؛ فإن جده سيرحمه ويرق له، ثم يمهله حتى يقبل هو عليه بخاطره، وأنه متى ذلك يأتي به إليه، وهو المتكفل به، فسار "رزام" إليه فرق الشيخ وبكى، ثم سأله "رزام" المسير معه إلى "ابراهيم بن علي الضامي" ففعل فأتياه في المسجد الذي كان يقعد فيه لتعليم القرآن. قال "إبراهيم": (فرفقت بالشيخ، وقرأت عليه أول كتاب الأحكام "للهادي"-عليه السلام- فأعجبه، وقبل ما فيه، وتاب من ساعته، واتخذني صديقاً، وصفت ولايته، وحسنت عشرته) ٢.

ومن طريق "محمد بن عبد الصمد" نتعرف على شخصية "إباضية" أخرى، ذات ثقل كبير، تحولت إلى "المطرفية"هو "نهار بن أبي عبدالله بن موسى بن عيسى بن هارون" قاضي البلد المذكور فيما تقدم (وهو رجل كان من قضاة الإباضية في ناحية بني جيش من شظب)٣ وربما كان يمت بصلة قربى إلى نفس الأسرة المشهورة التي طالما أمدت الإباضية بالزعامات- وكان "نهار" و"محمد بن عبد الصمد" يتباريان ويتسابقان (في درس كتب الإباضية وحفظها ومعرفة فقهها حتى اشتهرنا بذلك، وعرف لنا فيه الفضل

---

١ مسلم ، طبقات مسلم ،٤: ١٩٦-١٩٧

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٦-١٩٧

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٧

على غيرنا)١ وعندما أنضم "نهار" إلى "المطرفية" كان كما يقول عن نفسه (قد أطلعت على المقالات والمذاهب وأقوال فرق الأمة وعرفت ذلك؛ فوجدت "الزيدية" أهل الحق منهم. وكان يقول أنا على رأي "الزيدية" فأشهد عليّ أني ألقى الله تعالى به) ٢.

كما جذب "إبراهيم الضامي" إلى المطرفية "إبراهيم بن شهر" (وهو شيخ من "أهل شظب" كان ينزل قرية منه يقال له "المحول" وعرفته وكان من شيوخ "الإباضية" ومن أوسطهم داراً وبين أعظمهم تشدداً في رأيهم)٣

ومن خلال حديث "مسلّم" ندرك سطوة "الإباضية". بحيث كان معظم من يخرج عنها وينضم إلى المطرفية يكتم أمره خوفا من سطوتهم قال "إبراهيم بن شهر" لـ "إبراهيم الضامي" وهو يحاوره: (ياإبراهيم وقفت على كتاب وجدت فيه علماً حسناً وكلاماً جيداً في الدين، ورأيته يقول فيه: قال يحي بن الحسين فمن يحي بن الحسين؟ فقلت هو الهادي إلى الحق-عليه السلام- قال أحسنت وأحسن فيما حكاه، ثم أنشا يحدثني فقال سمعت القاضي نهار بن أبي عبدالله يقول: درست الكتب ونظرت في الملل والمذاهب ومضى لي في ذلك سنون كثيرة، فما رأيت مثل مذهب الزيدية ولولا أني ما أمن عداوة الأباضية وضرر انحرافهم عني ولا أكتفي من مجاملتهم ومسالمتهم لكنت أظهرت ذلك وأكشفه للناس، قال إبراهيم ثم سألني "إبراهيم بن شهر" عن مذهبي وسألني تعليمه فعلمته وبينته له قال: فقال لي قد رأيت أن أصلي مع الإباضية وأنوي صلاتي معهم نافلة وأصلي

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٧

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٧

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٧-١٩٨

فريضتي حيث يمكنني) ١ولم يكن "إبراهيم بن شهر" مخالفا مذهبه الأصلي وهو التقية فعمل بها في هذا الجو المتعصب.

ومثلا اخر يرويه إبراهيم (لقد أتاني آت من رجال أهل شظب وذوي الأسنان منهم فلما دنا مني قرب حتى كلمني في أذني، ثم قال يا إبراهيم أنا على دينك ولكن لا تعلم بهذا أحداً فدعوت له وانصرف)؟

وكانت "الإباضية" لا تخفي كرهها "للزيدية" بل تجاهر به، ويعيد "مسلّم" دوافع تلك الكراهية إلى ثلاثة أسباب يلخصها ممثلة في موقف موقف عامل الصليحيين الإباضي "عبد الله بن موسى الإباضي" الذي كان يخشى الزيدية أولا لمجاهرتهم بالعداء، (والثانية كونه رئيس القبائل من جهة النسب فهو يخاف خلافاً منهم لأمر رئاسته إذا خالفوا رأيه ومذهبه. والثالثة كونه عامل البلاد من قبل سلطان الصليحيين فهو يحب أن يُرفع عنه إليهم عداوة عدوهم، وولاية وليهم، والانتباه في دفع ما يتهم بعاقبة مكروهة على دينهم أودينا هم) ٣

وقد كان "عبد الله بن موسى" في تعامله مع الآخرين ممن ليسوا على مذهبه، ولا يخشى خطرهم؛ ذا أسلوب ناعم يسوده اللطف والكرم. قال إبراهيم (أتفق أني أردت "سوق باري" يوم خميس فأدركته في بعض الطريق فسلمت عليه فرد علي السلام بإنصاف وحاذاني ثم استدعا مني سماع شيء؛ فقرأت عليه خطبة كنت أحفظها للناصر لدين الله "أحمد بن يحي" عليهما لسلام فيها طول فسمعها حتى انقضت وتعجب من حفظي لها، ثم قال: هذه دفتر يا إبراهيم، ثم مد يده إلى عمامته فاستخرج منها دراهم

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٧-٩٨

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٨

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٩

فأعطانيها، وأقسم قسماً بالله العظيم "ما هذه إلا من مالي أنا الذي ورثته من آبائي وما هو من مال السلطنة" فأخذتها) ١ ويدل هذا النص على أن الرجل كان على معرفة بطبائع من يتحدث معه كما نرى ذلك واضحا في قضية المال الذي وهبه لـ "إبراهيم".

لكن تلك النعومة ما لبثت أن تغيرت عندما أصبح "إبراهيم" وأصحابه يشكلون قوة حامية ومحمية، وقد سجل لنا "مسلّم" بداية ذلك الخلاف عندما روى عن "إبراهيم الضامي" قصة نهاية الوئام بينهما، (وكان لي على المجاملة ولأصحابي، فلم يزل ذلك إلى أن صعد إلى رأس "جبل شظب" جماعة من عبّاد "الإباضية" وفقهائهم يريدون الاستسقاء، فاجتمعوا بموضع من أعلاه يعرف بـ "القُمُرْة" فخرج جماعة من أصحابي إليهم كراهية للوقوف عن ذكر الله والدعاء إليه والاستسقاء بالمتسقين من الناس، وخوفاً من استنكار عوامهم، فلما رأوهم قام "الإباضية" للصلاة، فنظر أصحابي في أمرهم، فرأوا أنهم لا يعقدون الصلاة خلفهم، وأنهم لا يخافون منهم على أنفسهم شيئاً يلزمهم من أجله المداراة في الصلاة، فصلّوا ناحية منهم، وقدموا رجلاً منهم فصلى بهم، وهي أول صلاة صلتها "الزيدية" جماعة بـ "شظب"، فلما انصرفوا من الصلاة، أقبلت "الإباضية" عليهم للعتاب. قال "إبراهيم": وكان في أصحابي "رزام بن أحمد" وكان مقدمهم، وفي أولئك جماعة من عبّادهم وذوي التقدمة منهم، وأئمة الجماعات منهم، ومنهم رجل يقال له "أحمد بن السعدي" وأخر يقال له "عذر" وثالث يقال له "العمري" فأقبل أحدهم على "رزام" وقال أخبرني: أنحن شيئان؟ فقال: ولم؟ قال: لأنكم

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٠

صليتم في جماعة غير جماعتنا، قال: نعم نحن قوم "زيدية"، قال: فدار بينهما كلام كالعتاب) ١

كانت هذه الصلاة آخر مرحلة التكتم وبداية عهد الظهور وبداية المواجهة الفكرية، وتحدي الأخطار. كانت إعلانا جهيرا من خلال فرض مقدس، ولم يكن اختيار "المطرفيين" لذلك التوقيت إلا دليلا على حدة الشرخ، وبعد الفجوة، وقوة المطرفية أيضا، ومع أن "الزيدية" لا تشترط في الصلاة إمامة المذهب فالإمام حاكم عندهم إلا أنها وجدت أن الإعلان عن ظهورها من هذا الموقع يشكل بداية قوية. والذي يهمنا هنا هو معرفة مادار بينهما من عتاب يكشف بعض معتقدات "الإباضية"، وما اسفر عنه من تتيجة (سأل "رزامُ" متكلمَهم: عن أول ما خلق الله، فقال له الإباضي: السماوات والأرض، قال: فضحك وقال: وفيما خلقنا أفي مكان أم لا؟ فلم يحر جواباً، وأحسبه رحمه الله قال: قال له رزام" ما الدليل على أنكم على الحق، ومن خالفكم على الباطل؟ فازدادت حيرته وعظم على القوم ..... ٢ وأهمهم جداً، وعلموا أن "الزيدية" إن تمكنت في الكلام والمناظرات في البلاد قويت كلمتهم وكثر عددهم، ولم يأمنوا أن يكون لهم معهم أو عليهم يد) ٣

وفي صباح اليوم التالي (بكَّر منهم رجلان أو هؤلاء الثلاثة -الذين تقدم ذكرهم- إلى القاضي "عبدالله بن موسى بن هارون" فشكوا إليه ما يجرى بينهم وبين "رزام" وأصحابه وعظموا الأمر، وارجفوا بما أمكنهم، وقالوا: هذا شيء قد حدث في "رأس شطب"؛ فالدماغ إذا فسد فسد سائر

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٠-٢٠١

٢ بياض في الأصل

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٠-٢٠١

البدن، في كلام من هذا. وكانوا فيما قالوا: أن "إبراهيم بن علي" أمر أصحابه فشتمونا، وقالوا وقالوا، فعظم ذلك على "عبدالله بن موسى" وضاق صدره وكبر عليه الأمر وكرهَهُ.. فقام لذلك على قدميه وعمل في استيصال شأفة[١] الأمر، وشأفة المذهب، وحسْم أصله) [٢].

ولكن رغم محاولات "الإباضية" صدهم عن التوجه نحو "المطرفية الزيدية" فلم يعد في وسع "قاضي الإباضية" إخمادهم؛ فقد اندلع الوهج "المطرفي" قويا، واستمر يعشو على ضوؤه كثير من "الإباضية" الأقوياء كـ "جابر بن العمير" وهو من (ذوى الإبرام والنقض منهم)، و"ابن أحمد بن الصايغ" و (كان له قدر ومحل في الولاية والرئاسة، وكان من أهل التعصب لنا والولاية من المشايخ وذوي أمر العشيرة) و "أحمد بن الحميدي"،(رجل من إجلائهم) قد حالوا دون الضرر بـ"إبراهيم"، ووقوفوا إلى جانبه في حواره معهم.

روى "إبراهيم الضامي" أنه دخل سوق "الإباضية" المعروف بـ "زوْقر" لحاجة له (دخلته فلم أشعر حتى أتاني رسول القاضي "عبدالله بن موسى بن هارون" فأتيته إلى صحن مسجد هناك، فاستقبلني بكلام غليظ،) وأثيرت بينهما مسألة إنسان شتم بالزنا وأريد له أن يوقب[٣] وكان الشاهد فيه أباضي و(أتفق في الحال معي حضور"أحمد بن الحميدي"- أحد إجلاء المشايخ وكان يتعصب لنا في الدين، فكان جالساً بقربه فقال مخاطباً للقاضي: يا أبا "محمد"

---

[١] يقال استأصل الله شأفته: استأصله من الأصل (لاروس ٦٩١)

[٢] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠١

[٣] حكم الإباضية في شاهد الزنا، إضافة تجميعية مهمة لمعرفة اي من فرق الإباضية كان هؤلاء. قال مسلم: وقبناه- أوقبناه أي جعلنا عليه الوقاب وهو البرذعة.

ليس مثل أولائك المصررة يكون شاهداً- يعني بالمصررة لباس "الإباضية"١ لما يتقون به على ثيابهم من رطوبة تحدث من مجرى البول، وكانت العامة تعيرهم بذلك، فقال القاضي: أنت شيعي يا أحمد؟. قال: نعم أما رجال الزيدية فإني أشهد أنهم على الحق، قال: فلما رأى ذلك من "أحمد بن الحميدي" سكت ورجع عما كان) ٢

أدرك رئيس "الإباضية" أن الخرق قد اتسع على الراقع، وأنه لابد من إجراء عمل حاسم، لأن المواجهة لم تعد ممكنة، وأنه لابد من إستخدام وسيلة أخرى، فـ (عدل إلى جهة الغيلة فعمل فيها.. وكانت قد كَتَبَتْ "الإباضية" إلى إخوانها بالمغرب من "الشرف" و "عرش": أنه قد ظهر في بلادنا رجل شيعي، وأنه قد أفسد البلد، وقد لزم رأس جبل شظب، وإذا فسد الدماغ فسد البدن قال: فبعثوا إليهم بدنانير صالحة، وفرقوا ذلك في عوامهم جعلا على قتلي، وكان قد أُنتدب لذلك أربعة منهم صار أحدهم بعد ذلك من أهل الدين)٣ لكن الله سلمه من اربعة رجال أقبل واحد منهم وبيده فأس يقلقله بين يديه ويقول: اليوم تلعب المعاول في رأس بعض الناس، فسمعه "أحمد بن الصانع" وكان من أهل ناحيته فمنعه.

---

١ إلى جانب أنهم كانوا يسمون بالمصررة كانوا يسمون مذهبهم بمذهب البياض إما بسبب انتشارهم في منطقة بهذا الإسم أو للبسهم البياض. قال مسلم اللحجي: والعامة تدعوا باسم القبائل التي بهذه المخاليف لأن اسم البياض واقع على أباضيتهم وتسميتهم١ والسبب في تسميتهم فيما أرى وعلى ما في وهمي من قول "الحسن بن يعقوب الهمداني" النسابة في الأكليل أنهم ممن.. [يلبس] البياض(طبقات مسلم،٤، ص،٢٠٦).

٢ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٢

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٠٢ وانظر القصة الكاملة فيه.

وفي حين بقيت "المطرفية" في "شظب" تزداد قوة بما تضم من شخصيات "إباضية" قوية، بقيت "الإباضية" تسير اتجاه عكسي وتتناقص وتتسرب، فإلى جانب من ذكرنا من قبل، ظفر "إبراهيم الضامي" بتاييد السلطان "حبشي بن عبدالباعث بن جعفر بن حبشي بن عبدالخالق". و (كان من سلاطين الجابريين رغب في البحث عن مذهب الهادي إلى الحق-عليه السلام- ورأي الزيدية، وكان آباؤه وأهل بلاده إباضية .. فأستدعى "إبراهيم بن علي" -رحمه الله-فأقبل حتى أتاه، وكان "حبشي بن عبدالباعث" ينزل "المصنعة" قرية في جنوبي "باري"... قال "إبراهيم": فلقيني إلى كهف خارج عمران ... وقد أخذت صحبتي نصف "الأحكام" الأول لما كنت قد رأيت خفته على قلوب أهل هذه النواحي وسرعة فهمهم لما فيه، وكنت قد أتيت أول النهار فما صلينا إلا في آخر وقت، وكان قد تردد في مواضع.. وتحيّر في أشياء من الشبه، فبالغت في التبيين له، والتقريب في الحجج، والأدلة، فما قام حتى قد بري من كل مخالف لـ "علي بن أبي طالب" وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام وفكر، ثم قال: ما لهم عليهم لعنة الله، وتاب من رأي الإباضية واعتقاد إمامة من يتولى علي وولده عليهم السلام وقويت بصيرته فكان ركنا من أركان الإسلام في هذه البلاد)[١].

وعن طريق "حبشي بن عبدالباعث" تم استقطاب عمه "عبدالواحد بن جعفر بن حبشي" بعد حوار، فقد كان عبدالواحد يقول لحبشي: عليك بمذهب البياض- أي "الإباضية"- ويلقاه "حبشي" فيقول له عليك بمذهب "الهادي إلى الحق" -عليه السلام- وما زال يرغبه فيه. قال "عبد الواحد" إن "حُبشي" مازال (يرغبني فيه ويزيدني ويظهر لي حتى قبلت عنه، وتعلقت

[١] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٠٦

بمذهب الهادي إلى الحق "يحي" -عليه السلام- وزادت محبته ما بيني وبين حبشي وأتصَلَت في الله، وزهد "حبشي" رحمه لله في الدنيا وتجرد للعبادة) ١.

باختصار يصور "إبراهيم" جهوده غب صراعه مع "الإباضية" على النحو التالي (لما وقعت إلى "شظب "واستجاب لي من استجاب من أهله، وخرجوا عن رأي "الخوارج" إلى مذهب الهادي إلى الحق "يحي بن الحسين" عليه السلام، تعلم بعضهم ما يحتاج إليه أمر طهوره وصلاته وبعض زاد على ذلك علاوة؟ في أصول دينه من معرفة الله ورسله، وولاية أهل البيت عليهم السلام حسب فراغه، وبحسب رغبته وفطنته، وبعض قبلت منه المسالمة ورضيت منه بالمباركة) ٣.

سهل لـ "إبراهيم" مهمته أن "الإباضية" أغلقت على نفسها المسارب، فلم تتزود إلا من نفسها، فلما بدأت تطلع على رأي الأخر تصدعت سدودها بسرعة، إذ ليس أضر على الفكر من الانغلاق، لأنه يظل في عتمة، حتى إذا وجد ضوءا آخر أنكره بعض الوقت، ولكنه ما يلبث أن يتعامل معه، ويستجيب له. وتلك ضريبة الإنغلاق.

ولكن "إبراهيم" رغم الجهد المبذول لم يتمكن من تحقيق كل ما يريد؛ ومات قبل أن (يتمكن من كل ما كان يبتغي أو يريد من التعليم)٤ وهذا يعني أنه عندما مات كان ما يزال "للإباضية" وجود، ولم تكن "المطرفية" قد تمكنت كليا في "شظب"، لكن التحول عن "الإباضية" قد بدأ

---

١ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٠٧

٢ غير واضح من الكلمة إلا علا. والعلاوة من كل شيئ مازاد عليه.(لاروس ٨٤٧)

٣ مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ١٩٨

٤ مسلم ،طبقات مسلم، ٤: ٢٦٩

دوره في التراجع ولن يتوقف حتى تخلو "شظب" منهم بعد حين، وفي وقت لم نتمكن من رصده بالتأكيد.

*

وفي موقع آخر نلقى "الإباضية" على أرض "بني شاور"[١] وقد أصبحوا كثرة كثرة يخشى منهم، ويرهب جانبهم. وفي نفس المكان نجد العلامة المطرفي "يحي بن علي الحداد" من "أهل صنعاء" يقاومهم بطريقة التعليم والعلم وبناء المساجد.

كان "يحي الحداد" ينزل موضعاً من أرض "بني شاور" يقال له "الموبر"[٢] وهو أحد شيوخ الزيدية المشهورين بالفضل والدعاء منهم إلى الخير، قال مسلم: (وكان تأثير "يحي" رحمه الله - في أرض "بني شاور" وأخباره بها ما لم يكن ظاهراً من التشيع- كتأثيرشيخنا "إبراهيم بن علي الضامي" - رحمة الله عليه - عندنا بـ "شظب"، إلاّ أن كل واحد منهما مات ولم يتمكن من كل ما كان يبتغي أو يريد من التعليم، إذ كان الغالب على أهل هذه البلاد من المذاهب أشدُها [عداء]٣ للتشيع، وأهله أشد الناس نفوراً عن أهله، وعمن يتشيعون له من آل رسول الله - صلى الله عليه - وهو "مذهب الإباضية" من "الخوارج")٤

وما طبقه "يحيىالحداد" في هذه المنطقة هو ما فعله "إبراهيم الضامي" في شظب في أول أمره قبل أن يتمكن ويغرس المطرفية فيها. قال "مسلم

---

[١] من قرى بني القدمي في بني العوام جنوبي مدينة حجة (طبقات مسلم)

[٢] غير معروفة الأن

٣ في الأصل غير واضحة

[٤] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٦٩

اللحجي" عن "عليان بن إبراهيم" - رحمه الله - قال: أن "القاسم بن سعيد بن محمد بن عبدالله بن أبي عبيد الله الخراساني" دخل مسجدا من مساجدالموبر" (وقد امتلأ ممن علّمه "يحي"- رحمه الله -الصلاة على مذهب الهادي-عليه السلام- من "بني شاور" ومن بينهم من الناس.. وعظم فرحه لها بإصابة الصواب ولـ "يحي" - رحمه الله - عليه بالثواب، وللإسلام الحياة، ولمن يزور تلك الأرض من ..الزيدية بالأنس لهم، وظن أنهم أستجابوا لله تعالي عن علم وفحص ونظر وبحث، وأنهم قد صلحوا للتبحر في العلم والمبالغة في التعليم، فأقبل على يحي -رحمه الله - فقال: لو كانت تقرأ على هؤلاء كتاب "الأحكام" و"المسترشد" في التوحيد.. ونحوهما من كتب "الهادي إلى الحق" -عليه السلام- وسائر الأئمة رضي الله عنهم، وتُرقيهم في العلم رتبة رتبة، فعجب "يحي" - رحمه الله - لقوله ذلك وقال: يا أخي ليس الأمر كما تظن، نحن نريد هؤلاء إذا أربق الناس علينا أربقوا معنا، فأما غير ذلك فلا يلتفتون إليه ولا يرجى منهم، فسكت "القاسم" وعرف الأمر)[١].

*

وفي النصف الأول من القرن السادس نجد للإباضية حضورا في حجور، ونسمع السلطان الإسماعيلي "الخطاب الحجوري" المتوفى عام ٥٣٣/ ١١٣٩-٣٨ يقول في قصيدته الرائية البديعة:

ثلاثة أصناف أباض وناصب لدي وزيدي أحطن بداري

---

[١] قال مسلم: (. قوله أربقا: الإرباق نوع من صراخ الرجال ..... بنوع من صراخ النساء. وأهل هذه الديار التي نحن بها ومايواليها من الناس والبلاد يستعملونه لشهرة الأمور والتنبيه عليها) (طبقات مسلم ٤: ٢٧٠)

ضربتهم بعضا ببعض كأنما أصك حجارا منهم بحجارا[1]

ومن هذين البيتين من الشعر نعرف أن لهذا السلطان دورا وراء اصطراع "الإباضية" و"النواصب" و"الزيدية"، وأنه كان لصاحبهما أثر في تحريض بعضهم على بعض، إلا أنه ليس لدينا تفاصيل متوفرة عن حوارهم مع "المطرفية" ولا مع غيرهم، كما أنه ليس لدينا تفاصيل عن "المطرفية" في هذه المنطقة أيضا. ولعل سيطرة السلطان الإسماعيلي "الخطاب" دخل في ذلك.

*

لكن في موقع آخر وبالتحديد في بلدة "سقام" من "الأهنوم" نجد "للإباضية" وجودا قويا في نفس الوقت الذي نجد فيه العلامة المطرفي "يونس بن محمد بن مطير الأهنومي" من "بني عوق" من "الأهنوم" يلعب الدور البارز ضدهم، وكان "يونس بن محمد بن مطير الأهنومي" قد اقنتع بـ "المطرفية" على يد "عليان بن إبراهيم" وكان (رحمه الله منذ تاب لا ينفك يأتي "وقش" ويزور "الزيدية" إلى هجرهم....وكان "يونس"-رحمه الله-من أهل الورع والعبادة، وطلاب العلم والتعليم من "الزيدية"، ونزل هو وإخوانه ببلد "الأهنوم" بموضع يعرف بـ "سقام" إعتزلوا به مساكن العصاة والعوام، وجعلوه دار هجرتهم)[2] وكان موجودا في أيام قيام "علي بن زيد بن المليح الحسني" وقاتل معه. وقيام علي بن زيد وقتله كان عام٥٣١ ٣٦/٣-١١٣٧ وكان من أنصار هذا

[1] الشامي، تاريخ اليمن الفكري، ١: ٤١٦

[2] مسلم ، طبقات مسلم،٤: ٣٢٥

[3] إبن المؤيد، غاية الأماني، ١: ٢٩٤-٢٩٥

الزعيم كل من "نشوان الحميري" و "أحمد بن سليمان" قبل خلافته، وأنكر "مسلّم اللحجي" على "يونس" مناصرته له، لكنه عاد فعذره[١].

لم يذكر لنا "مسلّم" دورا تفصيليا لنشاطه ضد "الإباضية"، ولكنه ذكر له أدوارا في مقارعة "الإسماعيلية" ليس له صلة بموضوعنا؟ لكنه ذكر له تلاميذ وأصحاب وصفهم مسلم بأنهم : (قوم أخيار أبرار صادقون مهديون يصلحون في البلاد ولا يفسدون، ويرشدون ويسترشدون")[٣] وأشار إلى أن رجلا منهم قصد (ناحية "الصيد" و"أنحُوّ" من "جبال الجَبر" في "الشرف") وكان بهذه الناحية (رجلان أخوان من "قضاة الإباضية" وعلمائهم المتقدمين من رؤسائهم المعظمين.. هما: "إبراهيم" و "أبو الهدام".... فأتى هذا الرجل ناحيتهما.. فنزل بـ "إبراهيم"-رحمه الله- فرأى وضوءه وتنظيفه وطهورة بدنه وثوبه وصلاته وهيبته فيها وسيما من الخير ظاهرة عليه فأعجبه ما رأى فسأله عن مذهبه فأخبره، فأمسكه... [ثم] قال له: ياأخي إن طلب العلم فريضة، وأنا اشتغل في البلاد..وأنا أحب أن تأتيني بشي من كلام أعلم عالم منكم حتى أنظر فيه وفي مذهبي هذا لطلب النجاة، قال: إن لنا أئمة هم الذي يعتمد على علومهم، وعلماؤنا لا يتجاوزن ما يأتون به قال: فمن أفضلهم قال: الهادي إلى الحق "يحي بن الحسين" عليهما السلام قال: فأتني بشيء من كتبه فأتاه بـ "الأحكام" و "المنتخب" وكتاب التوحيد المعروف بـ "المسترشد" وأشباهها، فنظر فيها، وأعاد التأمل لها، فقبل المذهب ورفض ما كان عليه من رأي "الإباضية")[٤]

---

[١] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٣١

[٢] انظر ص ص٣٢٥ وما بعدها من طبقات مسلم

[٣] مسلم، طبقات مسلم، ٤: ٣٢٥

[٤] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٢٧-٢٢٨

وكانت النتيجة أن (انفتح الباب بينه وبين "يونس" وغيره من "الزيدية" بناحيته، فزاروه ونصروه في كل ما يحتاج إليه من دينه، وأعانوه على أمره، وتجدد الحب بينه وبينهم، فكثرت زيارتهم له) [١]

وأثار انضمام "إبراهيم" -شقيق "أبو الهدام" - إلى "المطرفية" زوبعة عند "الإباضية" يصورها لنا "مسلّم اللحجي" فيقول أنه لمّا، (انكشف أمره لأخيه "أبي الهدام" فعظم عليه الأمر غاية الإعظام، وشق أشد المشقة فبعث إلى "قضاة الشرف" الإباضي في النواحي وإلى علمائهم وأجلائهم فاجتمعوا إليه فشكا إليهم الأمر فأتوا "إبراهيم" وعاتبوه في خروجه عن رأيهم وقالوا: هدمت ركننا وانتَقصْت ديننا، وزريت آباءنا وسلفنا، وأتيت امراً عظيماً، وفعلت وفعلت حتى أكثروا، فقال: أن المرء مأخوذ بالنظر في أمر دينه، منهي عن التقليد غير مأخوذ بأبيه ولا غيره من أهله ولا بأحد من الناس، لا يخلصه إلا ذلك، وقد صارت بيدي كتب من كتب أئمة هذا المذهب، فإن أحببتم أن آتيكم بها حتى تنظروا فيها فتصوبوا الصواب، وتخطؤا الخطأ فعلت ذلك، قالوا: لا نحب ذلك، قال: فلست بتارك ما أعتقدت من هذا المذهب. قالوا: إذا نهجرك، قال: إذاً ألجأ إلى الله سبحانه، قالوا: ولا يحكم لك ولا عليك، قال: أحسن ما تصنعون لأنكم لو حكمتم لي بتحليل ما يحرم في هذه الكتب وعلى هذا المذهب لم أستحله أو حكمتم على من إسقاط ما يلزم .. لم أسقطه، قالوا: ولا يشهد لك، قال: لا أدعوكم إلى هذا في المستقبل ولا يسألكم الله عن الماضي، فيئس القوم منه وأنصرفوا، واستقام على دينه حتى مات، وكانت مدة حياته بعد ذلك سنتان - رحمه الله - عليه.)[٢]

*

[١] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٢٨

[٢] مسلم ، طبقات مسلم، ٤: ٢٢٨

وأخر ما نلقى من حديث عن الإباضية كان في القرن السادس الهجري حيث يذكر العلامة الكبير "نشوان الحميري" المتوفى٥٧٣/٧٧- ١١٧٨ -وهو من رجال القرن نفسه- وجودهم في أيامه: (من "الإباضية" باليمن طائفة من "همدان" في "مغارب همدان"، ومنهم أيضا طائفة بـ "حضرموت" من "همدان" أيضا من "بشق" بطن من بطون "همدان")[١] ويذكر ذلك البروفسور مودلينغ (وقد عاشت مجموعات من الإباضية في جبال اليمن حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على أقل تقدير)[٢] لكني أعتقد أن "الإباضية" بقيت بعد القرن ٦/ ١٢م لكنها أقلية بقيت تتناقص. مع أننا حتى الآن لم نعثر من بعد القرن ٦/١٢م على أي خبر عن الإباضية: لها أو عليها، أو نرى لها طيفا سانحا في أي أفق، كأنها إمحت من الذاكرة التاريخية، وغابت عن الوعي العام. ولا نعرف على وجه التحديد كيف تلاشت، وعسى أن تكشف الأيام المزيد من المعلومات عنهما ليتمكن الباحثون من إستخراج تاريخ كامل ما يزال جاثما تحت الأنقاض.

كما أننا لاندري بالتأكيد أيهما تلاشى قبل الآخر أهم "إباضية شظب" أو "إباضية الشرفين" ولكنا ترجح أن شظب سبقت الشرفين، وترجيحنا هذا أن القضاء على الحطيط كان متأخرا بحوالي ست سنوات على الإستيلاء على شظب من قبل الأمير "ذو الشرفين"، وقد سبق أن قلنا أن من أسباب انتصاره على "الصليحيين" في "شظب" يعود إلى أن الشيخ "إبراهيم الضامي" كان قد نشر المطرفية فيها على حساب "الإباضية" المتعاونة مع "الصليحيين". وعلى كل حال فهو استنتاج يحتاج إلى توثيق.

*

---

[١] نشوان، الحور العين ٢٥٦-١٥٧.

[٢] ويلفرد مودلينغ: الإسلام في اليمن، ص ١٧٤

بعد اختفاء أخبار "الإباضية" بقليل، وفي مطلع القرن السابع، إختف خصمها "المطرفية" أيضا. وكانت نهايتهما محتلفة، أما الإباضية فقد تلاشت بطريقة بطريقة الإقناع أو بفعل في معركة واحدة. أما المطرفية فقد عُصف بها في مذابح أليمة بدون أن تسل سيفا، أو ترفع رمحا إلى دفاعا عن النفس محدودا. ومن الظرافة بمكان أن ينتهي الخصمان-وهما اللذان تشابكا وتجالدا- في فترة متقاربة، لكن من السخرية البالغة ألا يكون نهاية "المطرفية" على يد "الإباضية"، بل على يد قريب من أهلها وذويها، نحرها بدون رحمة.

*

هذا ما أمكن العثور عليه من تاريخ "الإباضية" في شمال اليمن. وقد أكثرت من ذكر النصوص عن عمد وقصد، وذلك من أجل تحصيل المواد اللازمة ليقوم عليها بناءٍ تاريخي متكامل. ولأن البحث ما يزال في بدء خطواته المبكرة، فإن الحاجة إلى الإكثار من النصوص ضرورة لذلك السبب، اعني استكمال إقامة البناء قبل وصفه وتحليله؛ فتجميع المواد مرحلة ضرورية تسبق مرحلة كتابة التاريخ المطمئن. وإذا كان البحث قد اعتمد في معظمه على رواية خصم هو مسلم اللحجي كما ذكرنا في الفصل السابق فإنه يذكر لـ "مسلّم اللحجي" أنه كان يشيد بخصومه وبعطيهم حقهم كما رأينا في وصفه لعلماء "الإباضية" وكما نرى في وصفه لخصم أخر من خصومه من الحسينية هو يوسف بن الذؤيب(كان من عباد أهل الظاهر وأعقّاء الحسينية وأهل الورع، ومن يمال إلى تصديق خبره)[١] . وهذا يعكس لنا منهج مسلّم دقته في رواية ما يرويه عن خصومه بدون أن ينقصهم من حقهم شيئا.

[١] مسلم، طبقات مسلم،٤: ١٩٠

ولعلنا لم ننقض الإباضية من حقهم شيئا، وأنه غاب عنا الكثير من أخبارهم وكل مؤلفاتهم وكان لهم تاليف، وكان لهم تاريخ لكن كل تراثهم دفن تحت الأنقاض ولم يبق منها سوى أطلال آمل أن يكون هذا البحث أول معول ينبش تاريخا مدفونا.